افتتاح الاذاعة الدينية
فى عهدها الجديد

ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد اللطيف دراز
مدير الأزهر فى مساء يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم .

نفتتح هذا الدور الإصلاحى الجديد لدار الإذاعة اللاسلكية المصرية .

حضرات السادة :

لا شك أن الاذاعة اللاسلكية من أعظم آيات العصر الحديث منفعة للناس ، وهى من بينها أقرب وسيلة على الإطلاق لنشر الآراء والأخبار ، وبث العلوم والمعارف ، وإذاعة الآداب والفنون ، وجمع الأمة كلها على الإحاطة بالأحوال العامة والشئون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وهى مع هذا لون جميل من ألوان المتاع المباح .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

لذلك عرف لها الناس قدرها . وتنافسوا فى الإقبال عليها ، والاستماع لما تذيعه وتتحدث به . واتخذتها الأمم والدول على اختلافها مصدرا من أهم مصادر أخبارها والتحدث عن آرائها وسياستها . فلا عجب بعد ذلك أن يلتفت اليها المسئولون عندنا لفتة عناية وإصلاح .

ياحضرات السادة :

إن مصر هى مثابة الإسلام وزعيمة العالم العربى ، اليها تتجه الأنظار وتهوى الأفئدة ، وتتسمع الآذان . ولقد كان من رزايا الماضى الأليم أن بقيت الأمية غالبة على الشعوب العربية والاسلامية : والأمى يسمع ولا يقرأ : لذلك لا تبرأ مصر من تبعاتها فى هذه الحالة إلا إذا أسمعت صوتها لجميع العالم العربى والاسلامى ، وكانت لها دار إذاعة تجمعها مع إخوانها العرب والمسلمين من أقصى الغرب الى أقصى الشرق على مائدة واحدة من وحى القرآن ، وهدى الاسلام ، وثقافة العصر ، وما امتازت به من علوم وفنون وآداب .

وعندى أن دار الاذاعة بهذا الوصف بعد تطورها الجديد . سيكون لها من الأثر فى جمع الشعوب الإسلامية والعربية على كلمة واحدة . ما لا يمكن أن يتأتى لأية وسيلة أخرى . وستكون فائدة ذلك للإسلام عامة وللعرب خاصة ، ولمصر بوجه أخص . مما لا تتسع له عبارة . ولا يبلغ كنه وصفه بيان .

لهذا جئت اليوم لأهنىء دار الإذاعة اللاسلكية المصرية . باتجاهها الجديد ، ونهضتها الإصلاحية المباركة ، راجيا أن تفضى بها سبيلها الرشيدة التى تنتهجها الآن الى الغاية المرجوة إن شاء الله . ولنا فى ثقافة رجالها وغيرتهم وكفايتهم لما يطلعون به ما هو جدير أن يُذكى هذا الأمل فى نفوسنا ، ويقرب هذه الغاية منا ، فى عهد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم . ملك وادى النيل . حفظه الله .

حضرات السادة :

كان المخلصون من هذه الأمة ينادون بأن يكون للتربية الوطنية . والنواحى الخلقية والقومية . والروحى الاسلامى . حظها الأوفى مما يذاع ويسمعه الناس . وقد سرّنا أن يكون من أثر الاتجاه الجديد رعاية هذا رعاية حسنة ، فنظمت أحاديث ومحاضرات فى هدْى القرآن . تجلى للناس حكمته البالغة . وسنته الوضاءة ، وأدبه القويم فى الإصلاح والتهذيب .

وسيتناول ذلك قصص القرآن الرائع . وهو القصص الحق المنزل من الله العليم الحكيم ، على خاتم النبيين والمرسلين . بأحكم الحكم . وأروع العبر . وأصدق أمثل التاريخ . كما تناول المنهج الجديد فيما تناول ، عرضَ الأعلام الإسلامية الخالدة . وما كان لها من أثر بالغ فى تكوين التاريخ الإسلامى من شتى نواحيه .

ولما كان علم هذه الأعلام . وأحقها جميعاً بالتقديم ، هو ولا شك إمامها الأول . وقائدها الأكبر . سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقد رئى أن يكون هذا الأسبوع الذى يبتدىء اليوم هو أسبوع محمد صلى الله عليه وسلم . وسيتناول المتحدثون من أفاضل العلماء النواحىَ المختلفة لعظمته . ونحب أن لا تخلو هذه المناسبة من كلمة موجزة فى ذكرى المصلح الأعظم ، ورسول الإنسانية العام ، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

حضرات السادة :

لن أطيل القول . بل سيكون ما بقى عليكم أن تسمعوه غايةً فى الإيجاز ، وما حاجتنا الى التطويل ، وليس أمامنا غامض نجليه ، ولا مردود ندافع عنه : بل ما حاجتنا إلى التطويل فى مقام هو أظهر من كل حجة ، وأوضح من كل برهان ، وأصدق على نفسه من كل شاهد : مقام محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم الذى أوحى به إليه .

هل هناك أصدق شهادةً لمحمد من سيرة محمد ، وهدى محمد ، وشريعة محمد ؟ هل هناك أصدق شهادةً لمحمد من محمد نفسه ؟ لا ، بل كلمة الله أفصح وأبلغ . هل هناك أكبر شهادة لمحمد من الله ربه : « قل أىُّ شىء أكبرُ شهادةً ، قل اللهُ شهيدٌ بينى وبينكم ، وأوحِىَ إلىَّ هذا القرآنُ لأُنذرَكم به ومَن بَلغَ » .

نعم أيها السادة ، هى الشهادة الكبرى ، شهادة الله جلَّ شأنه لرسوله بأنه صادق ، وللقرآن بأنه الحق من عند الله : وهى الشهادة التى تدحض كل باطل ، وتخرس كل لسان . وهذه الشهادة ، هى شهادة الكون نفسه ، شهادة السنة الإلهية القاهرة . فإن لله كتابين : كتابا مقروءا ، هو هذا القرآن الذى نتلوه ، وكتاباً صامتاً ، هو هذا الكون ، ولكنه فى صمته أنطق من كل ناطق ، وأفصح بحاله من كل لسان .

فإذا كان ما يدعو إليه محمد والقرآن ، يتفق وهذه السنة الإلهية ، ويسير معها فى سبيل واحدة إلى غاية واحدة ، ويهدى إلى ما تهدى إليه ، من عمارة الأرض والإصلاح فيها ، وتزكية النفوس وتهذيبها ، وتوحيد الخالق وعبادته ، وترقية الإنسانية والنهوض بها : إذا كان ما يدعو إليه محمد ، وما جاهد فى سبيله حتى الموت ، هو هذه السبيل إلى تلك الغاية السعيدة ، فليس بعد ذلك دلالة أعظم ، ولا شهادة أكبر على أن باعث الرسول ، ومنزل القرآن ، هو خالق هذا الكون : وإلا لاختلفا فى السبيل ، أو اختلفا فى الغاية ، أو تعارضاً ولو فى القليل ؛ بل لتعارضاً فى الكثير الذى يعلمه الله ويجهله محمد ، ويتنزه عنه الخالق ، ولا يتنزه عنه المخلوق . أما ولا اختلاف قط بين آيات الكون ، وآيات القرآن ، فتلك إذاً هى الشهادة الكبرى لمحمد والقرآن ، وأىّ شىء أكبر شهادةً من الله ؟!

حضرات السادة :

لو أردنا أن نضرب الأمثال على هذا الذى ذكرناه لكم من اتفاق آيات الكون وآيات القرآن ، لطال بنا القول : ولكننا سنجتزئ من ذلك كله بمثال واحد هو « التوحيد » الذى دعا إليه الاسلام ، والوحدة التى كوّنها محمد بالفعل من أمم مختلفة العناصر والأجناس .

أرأيتم كيف تعمل الأمم فى القرن العشرين لتحقيق هذه الوحدة وتلجّ فى الوصول إليها ، فلا تنال من سعيها إلا حربا بعد حرب ، وفناء بعد فناء ! ذلك أنها تدعو الى وحدتها على أساس الأطماع والشهوات والأغراض . تأملوا هذا فى عصرنا الحاضر ، وتأملوا كيف فشلت فى هذه السبيل هيئة الأمم أو كادت ، كما فشلت زميلتها عصبة الأمم من قبل ؛ ثم ارجعوا الى ما قبل هذا التاريخ بست وستين وثلاثمائة وألف من السنين ، تجدوا الوحدة التى أقامها محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقامها على أساس من الحق ، وتقوى من الله ورضوان .

بهذه المقارنة الواضحه تدركون الفرق بين ما هو من عند الناس ، وما هو من عند الله ، وتتبين لكم واضحةً سبيلُ الرحمن من سبيل الشيطان . لقد أقام القرآن الوحدة بين الناس ، من أعلى عليائها الى نهاية مداها ، على الحق الواضح والنور المبين . فالله رب الناس واحد لا شريك له « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لم يَلِدْ ولم يُولَدْ . ولم يكنْ له كُفُواً أحدٌ » . والرسل والأنبياء الذين بعثوا الى الناس ، والكتب التى أنزلت عليهم من الله ، كل هذا أمر واحد وشأن واحد ، سبيله الهداية الى الحق ، والدعوة الى الله ، وغايته النجاح والفلاح والفوز بسعادتى الدنيا والآخرة : « آمنَ الرسولُ بما أُنزِلَ إليه من ربه والمؤمنون ، كُلٌّ آمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نُفرّق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانَك ربّنا وإليك المصير » . والناس جميعا عنصر واحد ، وأصل واحد ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى « يأيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شُعوبا وقبائلَ لِتَعارَفوا . إنّ أكرمَكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك : « أيها الناس ! إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدمَ وآدمُ من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، ألاَ هل بلّغْت ؟ اللهم فاشهد » . ويمضى الإسلام على هذه السنة من الأخوة والمساواة التى جعلت المسلم أخا للمسلم مهما تباعدت الديار ، وتناءت الأقطار ، والتى لم تستطع أيدى الظلم والطغيان على شدة بطشها وجبروتها ، ولم تستطع عوامل التفريق ، وهى كثيرة لا تعد ، أن تقضى عليها ، أو تضعف من شأنها .

فلا زال صوت الهند أرفعَ صوت فى الدفاع عن فلسطين : ولا زال المسلم على ساحل الإطلانطى يستجيب لنداء المسلم عند جدران الصين . فأين هذا من العنصرية الممقوتة ، والشعوبية البغيضة ، التى لم تزل تفرق بين الناس فى أرقى البلاد مدنية ونورا ؟ !

هذه الوحدة التى وضعها الاسلام بين الناس ، وهذه المساواة العامة بين بنى البشر التى أقامها القرآن على أساسه الإلهى ، فحققها فى أوجز مدة وأسرع زمان ؛ وهذا التخبط بين دول العالم وأممه ، فى السعى الى الوحدة من طريق غير الطريق السوى ، وفشلهم فى ذلك مرة بعد أخرى — هو دليلنا اليوم ؛ وحسبنا هو من دليل على صدق الدعوة الاسلامية ، وأثرها الخالد فى الإصلاح ، وهديها الواضح وحقها المبين .

بل هى آية الدهر ، ومعجزة الزمان ، على أن لا تصلح الانسانية ولا يستقيم شأنها إلا على الأساس الذى وضعها عليه القرآن ، وصدق الله العظيم « قل يأ يها الناسُ إنى رسولُ الله إليكم جميعا ، الذى له ملكُ السموات والأرضِ ، لا إله إلا هو ، يحيى ويميت ، فآمِنُوا باللهِ ورسولِه النبىّ الأمىّ الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتّبعوه لعلكم تهتدون » .

الوعى القومى والوعى العالمي والاسلام

يراد بالوعى القومى شعور الأمة بوجودها كوحدة اجتماعية ، لها حقوق طبيعية ، وعليها واجبات إنسانية . فأما حقوقها الطبيعية فهى أن تعيش فى بلادها حرة مستقلة ، تستغل ما تحت يدها من الأرض دون أن يحد من نشاطها فيها متحكم : وأن تنشىء بينها وبين الأمم المختلفة علاقات أدبية ومادية دون أن يعترض هذا الانشاء متسيطر . فهذا الوعى الجماعى الذى يشبه الوعى الفردى من جميع الوجوه ، يوجه الأمم إلى طرق الحصول على مقوماتها . ووسائل درء المهددات لوجودها ، ويجعلها تحتاط للحوادث قبل وقوعها ، وتتخذ لها ما يدفعها عند طروئها . هذا الوعى ضرورى للجماعات ضرورته للأفراد ، وحرية التصرف فى توجيهه لا بد منها للحصول على كل ما يثمره للجميع من نظام ووئام واتجاه حر مشترك ، يتأدى بهم إلى الغايات التى كتب للانسانية أن تبلغها .

ولكن الحالة البدائية للجماعات اقتضت ، لأسباب شتى من القصور العقلى والعلمى ، أن يقتصر وعيها القومى على وجودها الذاتى ، وعلى قواها ووسائلها دون أن يكون لها الخيرة فى أمرها ، لوقوعها فى أسر حكومات استبدادية منها ، هى التى أقامتها ، أو لأن حالتها من القصور هى التى اقتضتها وأخضعتها لها . وكان هذا هو النظام العام فى جميع الشعوب إلى ما قبل خمسة قرون ، أى حوالى عهد انتهاء القرون الوسطى ، حيث تيقظ فى النفوس عامل جديد للحياة الاجتماعية ، وهو إصلاح أداة الحكم بحيث تتجلى فيها إرادة الأمة . فتعطى نفسها الوجهة التى تريدها ، وتهيء لها الوسائل التى تؤديها إليها .

انتقال بعيد المدى فى طراز حكومات الأمم ، انتهت إليه أرقى الجماعات ثقافة ، وأرفعها أدبا ، وأكثرها ميلا إلى الترقى ، وأسرعها اجتيازا لمراحل الحياة فى خطى ثابتة يؤمن معها الزلل ، وتبلغ بها الغاية ، مع شعور عام من جميع الأفراد بها ، وهم لذلك يتوزعون التبعات فى المحافظة عليها ، والمناضلة عنها .

ومنذ نحو قرن من الزمان، بدرت بوادر شعور عال لبعض كبار المفكرين رموا به إلى ضرورة اعتبار الإنسانية كلها أمة واحدة، يجب أن تبطل بينها الحروب، وأن تقوم على مبدأ التعارف والتفاهم، ليتحقق بذلك مؤدى الناموس الأدبى الذى يأبى بطبيعته العلوية أن يفرق بين بنى آدم بسبب اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم. ويتفق والمنطق الاجتماعى من أن إبطال التناحر، والقيامة على سنة التعاون، أجدى فى هذه المرحلة التى بلغتها الإنسانية على المجموعة البشرية، وأقوى أداة لإيصالها إلى كمالها المنشود.

ولكن هذا البصيص من النور العلوى الذى شعر به بعض كبار القلوب، لم يصل حتى خبره إلى الدهماء. فما يزال الناس على ما كانوا عليه من التفرقة بين الشعوب، وسيبقون على هذه الحالة حتى تصل العلاقات الدولية إلى مأزق لا تستقيم معه إلا بتآخى جميع الأمم وقيامها على سنة التعاون والتكافل التى كانت تحلم بها بعض العقول الراقية ولا تستطيع أن تجاهر بها.

ومن المعجزات العلمية الإسلامية، أنه جاء بنوعى الوعى الاجتماعى، القومى والعالمى، على وجه يمكن أن يتصوره العقل، ويقره العدل المطلق، والشعور العالى بالحق.

بدأ الإسلام فى تكوين مجتمعه على السنة الديمقراطية الصحيحة: بنشر دعوته بين الأمم أجمع، غير مراع إلا وجهة الإصلاح على مقتضى أصولها الطبيعية القويمة، باشعار جميع طبقات الأمم بحقوقهم وواجباتهم: فصاح بالناس كافة وهم فى غفلة من أمرهم ليوقظهم من سباتهم قائلا: «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً. فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما».

ثم راعى فى جمعهم أن تكون الصلات كلها بينهم قائمة على الديموقراطية الصحيحة، بدعوة الخاص والعام إلى كلمة واحدة لا تمايز فيها. فكلف كل فرد من المجتمع بما كلف به سواه، لا فرق بين قوى وضعيف، ولا بين شريف ووضيع.

فالوعى القومى فى مثل هذه الأمة يكون على القليل أشد ما يمكن أن يكون عليه، لأنه أساس اجتماع الأفراد وترابطهم، على خلاف سائر المجتمعات فانها لم تؤلف تلبية لدعوة، ولا تخيراً لمذهب، ولكن من طريق التطور التدريجى الذى لا يحس بأدواره المتعاقبة، ولا بعللها المؤثرة.

وقد صارح الكتاب الشريف الناس بمالهم وبما عليهم، وكرر ذلك مراراً على ألوان شتى من البيان، وفى حالات عدة من الحوادث، حتى صار كل إنسان على علم تام بما له على الجماعة التى هو منها وما عليه لها، وليس بعد هذا مزيد من الوعى الاجتماعى البالغ منتهى الكمال، وهو الذى حمل المسلمين فى حادث الفتنة أن يتجمعوا فى نحو اثنى عشر ألفاً ويحاسبوا أمير المؤمنين عثمان على ما حدث من بعض عماله فى الأقطار. وقد أعقب ذلك ثورة قتل فيها الخليفة الثالث: ولولا أن الوعى الاجتماعى كان لدى المسلمين الأولين مستوفياً شروطه، لتأدت هذه الحركة إلى تفكك جماعة المؤمنين، وتفرق كلمتهم، ولكان سائغ للرومانيين والفرس المحيطين بهم أن يزحفوا عليهم، ويستخلصوا ما اقتطعوه منهم من أقطار.

وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم حالة المسلمين من هذه الناحية بقوله: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وقوله: «مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى».

وإلى جانب هذا الوعى الخاص بث الإسلام فى روع المسلمين وعياً عالمياً، ووطد قواعده فى عقولهم ونفوسهم، وطالبهم بالعمل به وهو ما لم يسبق اليه فى تاريخ أية أمة من الأمم، حتى الأمم المعاصرة لنا ممن ضربت فى الرقى العلمى والفلسفى بسهم وافر. يظهر ذلك بأجلى عبارة وأقوم دليل فى قوله تعالى: «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير».

هذا إيذان للعالم كافة فى جميع بقاع الأرض، متحضريهم ومتبديهم، بأن الله لم يخلق العالم ليتخالفوا ويتناحروا، ولكن ليتعارفوا ويتعاونوا على قطع مفاوز هذه الحياة، وعلى التأدى إلى وجود كريم يليق بمكانة الانسانية. وهذا التعارف

وما يستدعيه من التعاون والتكافل ، يقتضى كل الصفات الجليلة التى دعا إليها القرآن من المساواة فى الحقوق ، والعدل فى الأحكام ، والرحمة بالضعفاء ، والأمانة فى المعاملات . وهى أصول قد تعذر تعميمها فى العالم فى العهد الأول للمسلمين ، فقد كان التعصب الأعمى للأديان والقوميات يمنع الناس من الدخول فى مثل هذا العهد من السلام العام . ولولا ذلك وأثر الوراثات فى العقول ، لقبل الاسلامَ كل من بلغه دعوته ، ولكان للناس شأن غير شأنهم اليوم .

فللمسلمين والحالة هذه فوق شعورهم القومى ، شعور عالمى يشمل الانسانية جمعاء ، وليس الأثر الأدبى لهذا الأمر بالشيء القليل : وهو يعين على تعليل الانتقال البعيد المدى الذى بلغه المسلمون فى أقل من ربع قرن من الزمان فى آدابهم وأخلاقهم وعوائدهم وعلاقاتهم وسيرتهم فى فتوحاتهم . فقد أثر عنهم من التسامح للأجانب عن الدين ما لم يؤثر مثله ، أو قريب منه ، عن أى أمة من الأمم : فقد ساووا بينهم وبين أنفسهم فى المعاملات والمحاكمات والحقوق . وهذا كله ما كان ينفذ لولا أنه مرتكز على وعى عالمى عام ، اكتسب قوة من معاملة النبى صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب وغيرهم من الأجانب عن الإسلام . ومن عدم التفرقة بينهم وبين المسلمين فى المبرات والصدقات . بل فى بذل العلم إليهم وعدم البخل عليهم ببيان معاضله . وكشف غوامضه . وقد قابل أولئك الأجانب عن الإسلام هذه المعاملة الحسنة بالاخلاص للمسلمين . والتفانى فى خدمتهم : فقد ترجموا لهم من الكتب القديمة . وبالغوا لهم فى حل رموزها اللغوية ، ومعمياتها اللفظية . ما لم يحصل مثله إلا بين الإخوان المخلصين . بل القرابة الاقربين .

فالوعى العالمى الذى ظهر أول تنويه به فى القرآن الكريم . وفى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان من الأسباب القوية فى نهضة المسلمين التوسعية ، وانسياحهم فى الشرق والغرب . وفى تسابق الناس جماعات وشعوبا للدخول فى هذا الدين ، مسوقين الى ذلك بما تجلى على المسلمين من سعة أفقهم الاجتماعى ، ورحابة صدورهم للأجانب والأغراب واللاجئين إليهم . فكانوا

يساوونهم بأنفسهم أمام القانون ، وفى حقوق الجوار ، ويهادونهم ، ويقبلون دعواتهم الى محافلهم وولائمهم ، ويعودون مرضاهم ، ويشيّعون موتاهم ، ويكشفون لهم أسرار العلوم والفنون والصنائع ، ويعطونهم حقهم من الإجلال والاحترام ، حتى إنه لتمهر كثير منهم فى علوم الطب كان الخلفاء يتخذون أطباءهم منهم ، ويغدقون عليهم الأعطيات والهبات . وقد ذكر التاريخ أن دورهم كانت تضارع قصور الخلفاء فى سعتها وأبهتها ، وجمال مظهرها .

لا جرم أن الوعى العالمى الذى كان من أثره على المسلمين ما ترى ، يعتبر من المعجزات العلمية الخالدة للقرآن ، ويزيده إعجازا أن المسلمين الأولين عملوا به ، مع أنهم فى أول أدوارهم لم يكونوا على شىء من الثقافة الاجتماعية .

أين هذا لدى المسلمين مما كانت عليه الحال عند سواهم من الأمم التى كانت عريقة فى المدنية كالأمة اليونانية والرومانية ؟ فقد أثر عن أفلاطون قوله : « إنى أشكر ربى على ثلاث : على أنه خلقنى إنسانا ولم يخلقنى حيوانا ، وعلى أنه أوجدنى فى عهد سقراط ، وعلى أنه قدر لى أن أكون يونانيا ، ولم يقدر لى أن أكون من جنس آخر » . أين هذا من قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بتقوى أو عمل صالح ، كلكم لآدم وآدم من تراب » ؟

وكان أرسطو الملقب بأمير الفلسفة تلميذ أفلاطون ، يعتبر الأرقاء من البهائم المجردة عن الحقوق الانسانية : فأين هذا من قول عمر أمير المؤمنين : « كان أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » يعنى بلالا الذى كان رقيقا حبشيا ؟

هذه كلها آيات بينات ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

محمد فريد وجدى

إنما الاعمال بالنيات

لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ؛ فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة يَنكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » رواه الشيخان (١) .

* * *

أجمع الأئمة على جلالة هـذا الحديث ، وعظيم خطره ، حتى قال الشافعى وأحمد وغيرهما : إنه ثلث الاسلام : يعنون أن الاسلام ينتظم أركاناً ثلاثة : عمل الجنان ، وقول اللسان ، وفعل الجوارح : أو يريدون أنه أحد الأحاديث الثلاثة التى اليها ترد جميع الأحكام : والثانى : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ » رواه مسلم عن عائشة : والثالث : « الحلال بيّن والحرام بيّن » الحديث . رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما .

والحديث بعد هـذا يرفع شأن النيـة ، ويعلى مكانها ، ويبين أنها من العمل بمنزلة الأس من البنـاء ، والروح من الجسد ، والعماد من البيت . وإذا قدرت القوانين النية قـدرها ، وربطت بها آثارها ، وأدخلت فى الثواب أو العقـاب حسابها ، فإن شريعة من الشرائع لم تبلغ مبلغ الاسلام فى تقدير النية والاعتـداد بها . وحسبك أنه يهدر العمل إذا خلا من النية ، ويجعله ، أو يكاد ، ضربا من ضروب اللغو أو الخطأ ، وهو لا يجرى على واحـد منهما وإن أدى بطريق المصادفة إلى غاية حسنة . فإن عاقب المخطىء إذا أفضى خطؤه إلى ضرر ، فلتربية

(١) كتب هذا الحديث فى دار الهجرة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام . وإنما فاته العدد السابق ، وهو به ألصق ، لاضطراب البريد حينا وتعطيله حينا آخر ، والحمد لله إذ أنجى الكنانة من سبب اضطرابه : .

اليقظة فى النفوس وتحذيرها أن تتهاون أو تتغافل حتى تنحرف عن الجادة . ومن هنا رفع القلم عن الصبى حتى يبلغ ، وعن المجنون حتى يُفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ . كما رفع عن المخطىء والناسى والمكرَه (١) : لأن هؤلاء جميعاً لا نية لهم : اللهم إلا الصبى إذا ميز فإنه يؤدب إذا أساء . ويكافأ إذا أحسن ، وإن تكن نيته دون من بلغ الحُلُم . على أن الإسلام لم يترك هذا الباب مفتوحاً على مصراعيه . يلجه كل من تحدثه نفسه بالتخلى عن التبعة : بل وضع شروطاً للخطأ والنسيان والإكراه تأخذ بتلابيب كل مفتر أو متصنع (٢) . وإذا أردت أن تبلغ الغاية فى تقدير الإسلام للنية والاعتداد بها . فانظر إليه إذ يفضل النية المجردة من العمل على العمل المجرد من النية . وهذا تأويل الأثر المشهور « نية المؤمن خير من عمله » (٣) ، وذلك لأن العمل الذى خلا من النية كالصورة لا حياة فيها . والبنيان لا أساس له ، فلا خير منه يرتجى ولا ثمرة له ترتقب : أما النية الصالحة فهى تذكى صاحبها وتوجهه إلى صالح العمل وشيكا : بل هى تلحقه بالعاملين المخلصين إن صلحت . وبالمفسدين إن فسدت . وإن لم يصنع صاحبها شيئاً . وشاهد هذا ما رواه الترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فيه ربه . ويصل فيه رحمه . ويعلم لله فيه حقا . فهذا بأفضل المنازل ؛ وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا ، فهو صادق النية ، يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته . فأجرهما سواء : وعبد رزقه مالا ولم يرزقه علما ، فهو يخبط فى ماله بغير علم . لا يتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه . ولا يعلم لله فيه حقا ، فهذا بأخبث المنازل : وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما . فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان . فهو بنيته ، فوزرهما سواء » . وقد دلت صحاح الآثار على أن من اعتاد عمل خير أو همّ به فحبسه حابس من مرض أو عذر . كتب الله له ثواب ما نوى : فمن ذلك ما رواه البخارى عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال

---

(١) فى ذلك كله أحاديث ينظر تحقيقها فى كشف الخفاء .

(٢) فلا يقبل من دعاوى الخطأ والنسيان والإكراه إلا ما دلت القرائن على صدقه .

(٣) حديث ضعيف ولكن له طرق تجعل فيه قوة . وله تأويلات أخرى ذكر بعضها كشف الخفاء وإحياء العلوم .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مرض العبد أو سافر ، كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا » . ومن رواه البخارى أيضا عن أنس رضى الله عنه قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال « إن أقواما خلفنا بالمدينة ، ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا ، حبسهم العذر » .

وكما يُجزَى العبدُ على الحسنة يهمّ بها فلم يستطعها ، يجزى كذلك على السيئة يريدها ثم يكف عنها خشية الله عز وجل ، وربما انتظم بخوفه من الله فى سلك الطوائف السبعة التى يظلها الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

ولما كانت النية تختلف قوة وضعفا ، على حسب منزلة العبد فى الإخلاص قربا وبعدا — اختلف الجزاء على الأعمال قلة وكثرة ، حتى جوزى المحسن على حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله عز وجل : روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تصدق بعَدل تمرة (١) من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه (٢) حتى تكون مثل الجبل » . وروى النسائى وغيره عن أبى هريرة أيضا رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبَقَ درهم مائة ألف درهم » . فقال رجل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : رجل له مال كثير أخذ من عُرضه مائة ألف درهم تصدق بها ، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به » .

ولعل فى هذا الذى أسلفناه بيانا لفضل النية الصالحة ، وأنها جوهر العمل وروحه ، وتلك خلاصة الجملة الأولى « إنما الأعمال بالنيات » : وتصويرا صادقا لجزاء العاملين ، وأنه على حسب نياتهم ، ومرتبة كل من الإخلاص ، وهم فى ذلك درجات ، وتلك خلاصة الجملة الثانية « وإنما لكل امرىء ما نوى » .

---

(١) أى بقيمتها لأن العدل بالفتح : المثل ، وبالكسر : الحمل .

(٢) مهره وفيه لغتان : الفتح فالفهر فالتشديد ، والكسر فالسكون بوزن جرو ، والتقبل باليمين كناية عن الرضا .

ولما بيّن صلوات الله وسلامه عليه أن الأعمال بحسب النيات ، وأن حظ العامل من عمله نيته ، خيرا كان العمل أو شرا - أوضح جزاء المخلصين والمرائين فى مثال من الأعمال التى تتحد صورتها ويختلف حكمها والجزاء عليها باختلاف النية فيها إخلاصا ورياء وصلاحا وفسادا ، وكأنه يقول : إن سائر الأعمال على قياس هذا المثال . واختار التمثيل بالهجرة لما لها من عظيم الشأن فى ذلك العهد ، ولعله تحدث الحديث فى إبان الهجرة من مكة الى المدينة والدعوة إليها . ويؤيد ذلك ما يروى أن رجلا هاجر من مكة إلى المدينة لا يريد فضيلة الهجرة وإنما يريد أن يتزوج امرأة تدعى أم قيس ، وكان خطبها فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر إليها . ففعل ، فكان يقال له مهاجر أم قيس : فإن صح أن تكون القصة سبب هذا الحديث كما قيل ، كان التمثيل بالمرأة مقصودا له صلى الله عليه وسلم جريا على كريم عادته من التعليم والارشاد من غير أن يجابه أحدا بما يكره حياء وكرما : وإلا فالقصة من قبيل المصادفة ليس غير .

وقد وقعت الهجرة فى الإسلام على وجهين : أولهما الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن كما فى هجرتى الحبشة ، وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة ؛ والثانى الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان ، وذلك بعد أن استقر النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين . وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص وبقى عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه واجباً .

واتحاد الجزاء والشرط مما يدل على المبالغة فى التعظيم أو التحقير . فكأنه صلوات الله وسلامه عليه يقول : من هاجر لا يبتغى إلا وجه الله عز وجل لا أجد له جزاء إلا أن أكله إليه سبحانه ، فهو وليه وحسبه « والله ذو الفضل العظيم » : ومن هاجر لا يبتغى إلا دنيا يصيبها أو شهوة يقضيها فحسبه ضياعا وخزياً أن وكله الله إلى غيره فخسر الدنيا والآخرة « ذلك هو الخسران المبين » .

وبعد ، فإن مدار الفوز والسعادة على العمل ، ومدار العمل على الإخلاص : فمن عجز عن العمل الصالح فلن يعجز عن النية الصالحة . والرغبة الصادقة :

ورب نية فاقت عملا ، ورب رغبة مهدت للخير سُبلا ؟

ادب الجدل فى القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوى

شيخ معهد فؤاد الأول بأسيوط

ما دمنا فى هذه الحياة فالمنازعات بين الناس باقية لا تزول ، وما دام الملوان يتعاقبان فقانون تنازع البقاء سرمدى خالد يخضع الناس له ، ويذودون عنه باليد واللسان والفكر والجنان . فالجدال شأن اجتماعى لا يمكن أن تخلو منه أمة أو يتخلى عنه شعب : ذلك لأن الناس مختلفون فى المعتقدات والآراء ، متباينون فى الأغراض والميول : وما الحروب الطاحنة بين الأمم فى هذا العصر إلا وليدة اختلاف الآراء ، ونتيجة تشعب الأفكار .

وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الظاهرة الطبيعية فى سورة هود بقوله : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » .

وليس كل خلاف فى هذه الحياة شرا محضا ، فكثير من أفراده وسيلة للخير ومرقاة للنفع العام ، إذا كان الغرض به الوصول الى الحق وتمحيص وجه الصواب . انظر الى الشورى والمجالس النيابية ، فان الخلاف فى الفكر فيها دعامة الاصلاح الاجتماعى ، وأس العمران فى هذه الحياة .

والجدل والمناظرة كغيرهما من الشئون الاجتماعية ، إذا لم تحط بقيود انفرط عقدها ، وإذا لم تصحبها التحفظات ضاعت ثمرتها .

وكما أن للقرآن الكريم طريقته الخاصة فى إقامة الحجة والبرهان ، وله أسلوبه الخاص فى طريقة الاستدلال ، فله أيضا مسلكه الخاص فى أدب الجدل ومراعاة شعور الخصوم : أدب ينفق مع مكانته السامية ، ومراعاة تناسب مع الرسول الكريم الذى بلغه الى الناس .

وقد علم الله خطر الجدل إذا لم يقصد به الوصول إلى الحق ، فذكر لنا في كتابه الكريم الأصل العام الذي يجب أن يكون عليه الحجاج ، والأساس الذي يبنى عليه المؤمن جدله ومناظرته ، من حسن الأسلوب ولين الجانب ، وعف القول ، والإغضاء عن الهفوات ، والصفح عن الزلات : اقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة النحل :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

تجده قد رسم فيه العلي القدير لرسوله الكريم الدستور الذي يجب أن يتبع خطاه في دعوته ، فأمره بأن يقيم الدعوة على الحكمة والمواعظ الآخاذة بالقلوب حسنها ، ويخاصم ويجادل ولكن بالطريقة المثلى التي تضم الخصم إلى ساحته وتقربه من مبادئه . ثم حبب إليه طريقة العفو والصفح ، وبصره بمكانة الصبر بقوله « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

ثم استمع إلى قول الله عز وجل في سورة العنكبوت « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » وقوله تعالى في سورة فصلت « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » وقوله تعالى لموسى وهارون « اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » .

استمع إلى كل ذلك تعرف كيف دعا القرآن المؤمنين إلى سلوك طريق أحسن في حجاجهم ، وبين لهم ثمراته الدانية من أنه يقلب العدو صديقاً ، والخصم الألد أخاً حميماً ووليّاً ونصيراً .

وقد حذر القرآن المؤمنين من السب والشتم والخوض في المناقض والتنقص بساقط القول ، ولو كان ذلك في أصنام المشركين التي لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ، سداً للذرائع ، ووقاية من سوء أدب المشركين ، فقال « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » . ونص القرآن على من يجادل

بالباطل ليدحض به الحق ، ليلفت الناس الى أن الغاية التى يجب أن تقصد من الجدل هى ظهور الحق الذى ينتفع الناس به ، والذى يعود خيره على الجماعة الإنسانية كافة ، كما حط من شأن الذين يتكبرون فى جدالهم ويسخرون من خصومهم ، ويعتقدون بمالهم من مكانة مزيفة وسلطان مؤقت أنهم أصحاب القول الذى لا يرفض ، والرأى الذى لا يمانع : وفى ذلك يقول القرآن الكريم « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق » . ويقول : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه الى عذاب السعير » .

المثل العليا للجدل :

وقد قص الله علينا من باب الذكرى والاعتبار المثل العليا للخصوم الشرفاء ، ووضع بين أيدينا صورة واضحة للمجادلين بالحق المعتدلين فى خصومتهم المؤدبين فى جدالهم .

فقص علينا جدال ابراهيم عليه السلام مع أبيه فقال « واذكر فى الكتاب ابراهيم إنه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » .

هذا الأسلوب المؤدب هو أسلوب النبوة المخلصة ، أو بالأحرى أسلوب النبوة الكاملة . يفيض عطفا ، ويسيل رقة وحنانا ، يحذر فى لطف ، وينذر فى لين ، ويعرف مكانة الأبوة فيعطيها ما لها من حقوق ، ويهب لها ما تستحقه من رفعة واحترام .

فليت شعرى ماذا كان جواب الأبوة . وهى فى العادة موطن الرحمة والشفقة ، ومحل العطف والحدب ؟ إنها انقلبت شواظاً من نار وتحولت لظى من جحيم ، وانفرط منها عقد الرحمة فعاد قسوة فى فظاظة ، وغلظة فى جفاء

وإن أردت البرهان فاستمع إلى قول تلك الأبوة الظالمة : « قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا » فيقابل ابراهيم عليه السلام هذه الشدة باللين والإحسان ، فيقول : «سلام عليك ،سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا » . فأى نفس تلك التى صدر عنها هذا التواضع ، وأى فم ذلك الذى نطق بالآيات البينات فى مقابلة الاساءة بالاحسان ؟ إنها نفس إبراهيم عليه السلام ، وإنه فم خليل الرحمن وكفى .

وقص القرآن علينا أيضا جدال نوح عليه السلام مع قومه ، فقال : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » .

هذا أحسن تخاطب من قوم نوح لنوح . وهو كما ترى ينم عن الكبرياء والغطرسة ، ويفيض بالسخرية والاستهزاء ، ويرمى البرآء بأخس الأوصاف وأرذل الألقاب ، ويسم نوحا ومن اتبعه بالكذب والزور .

فانظر كيف كان رد نوح على هذه البذاءة وذلك الكبرياء : قال «يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقوم إنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا . الله أعلم بما فى أنفسهم ، إنى إذا لمن الظالمين » .

ألم تر إلى نوح عليه السلام كيف رد على فظاظتهم وغلظتهم بأبلغ ما فى الكلام من ألفاظ اللين ، وصار يضع بين أيديهم القوانين الاجتماعية والمبادىء الدينية فى أخصر لفظ وأرق معنى ، ويصور كل ذلك أبلغ تصوير ، ويكشف عنه الغطاء ويجليه لكل ذى بصيرة ، فبين لهم أن رحمة الله بعباده قد تخفى على من لم يستعد لفهمها والاستفادة منها ، وأن عقائد الدين لا تلقن تلقينا ولا تملى على الناس

إملاء ولو مع كره : بل هى سهلة جذابة تصل إلى القلوب السليمة لا حجاب يمنعها . ولا حاجز يعوق سيرها إليها : وأن الأنبياء سفراء عن ربهم يبلغون عباده أوامره ، وهو وحده الذى يعطيهم الأجر ويقدر لهم الجزاء ، فليس على العباد ضرائب مالية ولا تبعات مادية : وأن من لجأ إلى حظيرة الإيمان كيف يطرد ، وكيف ينتقص قدره ، وقد يكون له عند الله الزلفى وحسن المآب .

فهو كما ترى أسلوب تواضع ولين ، وأسلوب وعظ حسن وتذكير : وما كان هود عليه السلام بأسعد حظاً من إخوانه الرسل السابقين : فقد قال له قومه « يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » .

أما صالح فى قومه ثمود . فكان غريباً بين أمة ، ووحيدا فى شعب .

وكذلك شعيب عليه السلام وهو خطيب الأنبياء من أهل مدين من الشدة ، وكذبوه بسوء ! نهاهم عن نقص المكاييل والموازين وكانوا على ذلك مكبين ، وذكرهم بما لقى قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من العذاب المهين . فاستمع لردهم عليه ، قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز ، فيقول شعيب « أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ؟ إن ربى بما تعملون محيط » .

أما موسى مع فرعون فى جدالهما العجب العجاب : لين ورقة من موسى ، وكبرياء وصلف من فرعون : إذ يقول لموسى « لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين » فيقول موسى متلطفا « أو لو جئتك بشىء مبين » ؟

هذه هى المثل العليا فى أدب الجدل ، فجدير بكل من يتصدى للجدل العلمى أن يترسم خطاها فى الذود عن الحق ، ويتخذها إماما له فى حماية المبادىء ، فلا ينبغى أن يشتط الإنسان مع أخيه الإنسان ، ولا أن يواجهه بسقط القول وبذاءة اللسان : ولا ينبغى للمرء أن يعتد بمكانته فى المجتمع فيغضى عن رأى خصمه لأنه أقل منه مكانة وأضعف جندا ، فإن الرأى بقيمته لا بقيمة صاحبه : ولا ينبغى لإنسان كائنا من كان أن يفرض على الناس رأيه ، فإن الحق مشاع والحقيقة مطلب الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « لا تتعلم العلم لثلاث ، ولا تتركه لثلاث : لا تتعلمه لتمارى به وتجادل ، ولا لترائى به ، ولا لتباهى به ؛ ولا تتركه حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضا بالجهل . وقال علماء الأخلاق : إن الباعث على الجدال هو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنتان للنفس ، فإظهار الفضل من قبيل تزكية النفس ، وتنقيص الغير من مقتضيات طبع السبعية الكامن فى نفس الإنسان ، وكل ذلك من الصفات المذمومة التى يقويها الجدال ، وينميها غمط الحقوق .

وأكثر ما يكون الجدال بالباطل فى العقائد والمذاهب ؛ وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتابه الإحياء أن من أدب المجادل الذى يقصد بجداله وجه الله وإحقاق الحق ، أن يكون جداله مع خصمه فى خلوة لا فى حفل جامع ، فإن الخلوة أجمع للفهم ، وأحرى بصفاء الذهن ودرك الحق ، وفى حضور الجمع الكثير ما يحرك دواعى الرياء ، ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقا كان أم مبطلا . فحرصهم إذاً على المحافل والمجامع ليس لله ولا لوجه الحق .

فقد يخلو الواحد منهم بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه ، وربما اقترح عليه صاحبه بعض الأمور فلا يجيب . فاذا انتظم مجمع أو تكامل عقد محفل ، لم يغادر فى قوس الاحتيال منزعا حتى يكون هو المختص بالكلام وفارس الميدان .

ومن أدب المجادل أيضا أن يكون فى طلب الحق كاشد الضالة : سواء لديه أن تظهر الضالة على يديه أو على يد من يعاونه ، فيرى رفيقه معينا لا خصما ، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له طريق المحجة .

فقد اعترضت امرأة من قريش عمر بن الخطاب وهو على المنبر ينهى الناس عن الغالى فى مهور النساء ، فقالت له : أيعطينا الله ويمنعنا عمر ! يقول الله تعالى « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » فقال عمر : اللهم غفرا ! كل الناس أفقه من عمر ؟

فى مطلع العام الجديد :

الأشهر الحرم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

كان فيما ورثه العرب من ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، احترام أشهر أربعة من شهور السنة القمرية ، وتقديسها تقديساً عظيما ؛ فإذا كانوا فى شهر منها تركوا القتال إن كانوا فى قتال ، وأجلوا الثارات إن كانت لهم ثارات ، ونشروا الأمن والسلام فى ربوع الجزيرة وأرجائها ، حتى كان الواحد منهم يلقى فى الحرم وغيره قاتل أبيه أو أخيه ، على خلوة وتمكن ، فلا يمد يده إليه بسوء ، وهم القوم الذين عرفوا بالضراوة فى سفك الدماء ، والتمسك الشديد بالأخذ بالثأر .

ورثوا ذلك عن ملة إبراهيم وإسماعيل ، وعاشوا عليه زمانا لا يعبثون به ، ولا يغيرون فيه : فلما طال عليهم الأمد ، وبعُد العهد بينهم وبين هذه الملة الأولى ، وهانت عليهم - فى سبيل أهوائهم ومنافعهم - مناسكهم ومشاعرهم ، كان فيما عبثوا به ، وبدلوا فيه ، هذه الأشهر الحرم ، فأفسدوها بالنسىء ، وأحلوا منها ما حرّم الله ، يلغونها تارة ، ويؤجلونها أو بعضها تارات أخرى .

وليس من غرضنا الآن بيان النسىء ، وما كان من شأنهم فيه . وإنما نريد أن نقول : إن الشريعة الإسلامية قد أقرت هذا التشريع المتوارث عن إبراهيم وإسماعيل ، الثابت بطريق التواتر القولى والعملى إلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، جريا على سنتها فى الإبقاء على كل صلاح ، وعدم التعرض بالإلغاء أو التعديل إلا إلى ما كان من فساد ، أو اقترن به فساد .

يقول الله عز وجل : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حُرُمٌ . ذلك الدين القيّم . فلا تظلموا فيهن أنفسكم »[1] . وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأشهر الأربعة فى خطبته التى خطبها فى حجة الوداع ، فقال بعد أن تلا هذه الآية : « ثلاثة متواليات ، وواحد فرد : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان »[2] . وبذلك أصبحت السنة القمرية الإسلامية التى انبنى على حسابها كثير من أحكام التشريع مبدوءة بشهر حرام ، هو المحرم ، ومختومة بشهر حرام ، هو ذو الحجة ، ويتخللها فيما بين ذلك شهران آخران .

* * *

قضى الله ـ جلت حكمته ـ أن يفضل بعض ماخلق على بعض . لأسرار يعلمها هو ، ولا سبيل لنا إلى إدراكها على صورة من الجزم والتحديد . تلك سنته فى الأشخاص والأماكن والأزمان ، يفضل بعضاً على بعض ، ويميز بالتشريع والتعبد شيئاً على شىء : ومصداق ذلك قوله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار »[3] : فكما أنه فى أصل الخلق والتكوين مختار ، يخلق القوىّ والضعيف ، والذكىّ والغبىّ ، والجميل والدميم ، وذا الجراءة والشجاعة ، والجبانَ الفَروقة[4] ، ويميز بلاداً عن بلاد بما فيها من جبال عالية ، أو أنهار جارية ، أو عيون صافية ، ويجعل بعض الأرض خصباً ، وبعضها أجاديب ، ويطوى بعضاً على ماشاء من معادن وثروات وكنوز ، ويجعل بعضاً خلاء عفاء ، إلى غير ذلك مما نرى بأعيننا فى جميع نواحى الحياة : كذلك هو مختار فيما وراء الخلق والإبداع من التمييز والتفضيل ، يجعل لبعض الأماكن حرمة وقداسة . ولبعض الأزمان حرمة وقداسة ، فيكون ذلك اصطفاء لها واختياراً ، بمثابة اختياره واصطفائه تعالى لبعض من خلق من الأشخاص .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة التوبة .

(٢) رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبى بكرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قاله فى منى عام حجة الوداع . (٣) ٦٨ / القصص

(٤) الفروقة : الشديد الفزع . يستوى فيه المذكر والمؤنث .

وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذه المعنى الذى من شأنه أن يطمئن قلوب المؤمنين فى كثير من المواضع التى تكلم فيها عما خلق الله وعما شرع : « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون »[١] « والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[٢] « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً[٣] » « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوّجهم ذُكرانا وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما، إنه عليم قدير[٤] » « الله أعلم حيث يجعل رسالته »[٥] .

وقد أرشد إلى هذا المعنى أيضاً فى شأن الشهور وما اصطفاه الله منها ، فذكر لنا أن عدة الشهور عند الله ، أى فى حقيقة الأمر وواقعه ، اثنا عشر شهراً ، وأن ذلك هو شأنها فى كتاب الله ، أى فى نظام خلقه وما قدره للدنيا من سنن تكوينية يوم خلق السموات والأرض ، وإنما سُمى هذا النظام كتابا لأنه ثابت متقرر ثبات ما يكتب ويسجل : وذكر بعد هذا أن الله قد اختار من بينها هذه الأشهر وميزها ، وساق اللفظ الدال على ذلك مساقا يشعر بأن هذه الإرادة وهذا التفضيل كانا منذ الأزل ، فخلقت الشهور عامة ، وميز منها أربعة حرم ، بميزة خاصة .

هذا هو الأصل الذى يجب أن يكون عليه المعول فى تعليل امتياز هذه الأشهر بما ميزها الله به ، وأن يصار إليه فى تعليل كل امتياز فى الخلق أو تفضيل جرت به حكمة العليم القدير : ولكن هذا لا يحول بيننا وبين النظر فيما يصاحب هذه التدبيرات الإلهية العليا من فوائد للبشر نراها ونحس بها ، وتدركها عقولنا فنزداد بها إيمانا على إيمان ، ويقينا إلى يقين .

***

فإذا أردنا أن نطبق هذا على « الأشهر الحرم » ، وأن نعلم الفوائد التى ترتبت على هذا التشريع فى شأنها : برزت لنا فائدتان جليلتان ، كلتاهما تعود على بنى

---

(١) ٢٣ الأنبياء .
(٢) ٦٦ آل عمران .
(٣) ١١ النساء .
(٤) ٤٩ ـ ٥٠ الشورى .
(٥) ١٢٤ الأنعام

الإنسان بالتهذيب والسمو . وتقل فى المجتمع أظافر الشر والفساد إلى حد بعيد :

فأما الفائدة الأولى : فهى التهيئة لأعظم العبادات التى شرعها الله لعباده وهى حج البيت واعتماره .

لقد ذكر الحج بين أركان الإسلام الخمسة فى حديث « بنى الإسلام على خمس » وجاء ذكره فى آخرها . وليس ذلك لأنه آخر هذه الأركان منزلة ، وأقلها شأنا ، ولكن لأنه أعلاها فى مراتب الترقى والوصول الى الكمال ؛ فإن أركان الإسلام الأربعة التى تقدمته كلها تمهيد له وإعداد بالتطهير والتزكية ، حتى اذا أقبل المرء إليه كان صافى النفس . مطمئن القلب ، راسخ الإيمان . ولذلك كان الحج المقبول عند الله بمثابة خلق الله لصاحبه من جديد : « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيومَ ولدته أمه » [1] فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هى الخطوة الأولى التى يتقدم بها المؤمن فيعترف بأصل العلاقة بينه وبين ربه ورسول ربه ، ومع ما لهذا الاعتراف من قيمة فى ذاته فهو لا يكلف صاحبه بذلا ولا تضحية . ولا يستغرق منه جهداً ولا وقتاً ، بل إن فيه لذوى البصائر وأولى الألباب لذة هى لذة العرفان ، وجمالا هو جمال الادراك للحق . فإذا آمن بذلك قلبه كانت الخطوة التالية لهذا الإيمان أن يتوجه الى هذا الإله الذى آمن به . واعترف بواحدانيته ، خاشعاً مناجياً فى صلاة رسمها له ، وحدد له أركانها ووسيلتها . وشرع له قبلتها . وهذه عبادة مع سموها ، وجلالة شأنها ، لا تكلف صاحبها جهداً كبيراً . ولا تأخذ منه وقتاً طويلا ، فإن أدنى ما تصح به صلاة الفريضة لا يتجاوز بضع دقائق . وما زاد على ذلك فهو كمال . ثم تأتى بعد ذلك الخطوة الثالثة . وفيها شىء من التضحية والبذل ؛ ذلك أن يؤدى زكاة ماله فيقتطع منه جزءاً معينا طيبة به نفسه ليعطيه الفقراء والمساكين ؛ وبهذا الركن الثالث تكون أول تربية ايجابية ، وتزكية نفسية من الشح والاستئثار يطهر الله بها القلوب . ولكنها على ذلك ليست إلا تضحية مالية بنسبة ضئيلة تقل عن أصغر ضريبة مرتب أهل الأموال على أدائها فى أى بلد من بلاد الله وهم

(١) أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لايشعرون.. ثم تأتى بعد ذلك الخطوة الرابعة ، وهى صوم شهر كامل متتابعة أيامه ، يتخلى فيه المؤمن عن طعامه وشرابه وشهوته إيمانا بالله ، واحتساباً لثوابه ، ويصبر فيه على كثير مما يقاسى : وتلك منزلة من التضحية أعلى من التضحية فى الزكاة : لأن التضحية بشىء من النفس أعز وأغلى من التضحية بشىء من المال !

أما الفريضة الخامسة وهى الحج ، ففيها ذلك كله على أبلغ وجه ، وأكمل صورة : فيها الاعتراف بالله والإيمان به وبرسوله الى حد الترك لكل ما سواهما من المال والأهل والولد والمتاع : فيها التوجه الى الله ، لا بواسطة قبلة بينه وبينها آلاف الأميال ، ولكن بالرحيل الى هذه القبلة نفسها ؛ فيها بذل الكثير من المال عن رضى وسخاء ؛ فيها التضحية بالنفس ، واحتمال مشاق السفر والاغتراب ، والتحلل من سلطان العادة فى متع العيش ولذاته ؛ فيها خلع ثياب الدأب والعمل والكدح ، وارتداء ثياب التطهر والاحرام والتسليم ؛ وفيها الى ذلك كله زيارة الله فى بيته ، والمثول بين يديه فى المكان الذى قدسه ، والزمان الذى قدسه .

هكذا شأن فريضة الحج : كل ما قبلها بمثابة التمهيد لها : مثل العبد فيها كمثل امرئ أحب ملكا عظيما ، ودان له وهو فى طرف من أطراف ملكه بالخضوع والولاء ، ينفذ أوامره ، ويخلص فى خدمته ، ويقوم بكل ما عليه من واجبات فى سبيله ، ثم يستدعيه هذا الملك العظيم ، فيهرول إليه مسرعا ، ويخلع نفسه من كل ما هو فيه ، ويأخذ لهذه الزيارة التى ستتم فى بيت الملك أهبتها ، فيتزين ويتطيب ، ويقطع المراحل الطوال حتى يصل الى غايته ، ويحظى بأمنيته ! ولله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم .

فإذا كان للحج هذه المنزلة الكبرى من بين أركان الاسلام ، وكان الوافدون الى المسجد الحرام من كل فج عميق هم ضيوف الله وزواره ، فما أجدر الأشهر التى تقع فيها هذه الزيارة بأن تحرم وتقدس ، ويبلغ الأمن فيها مداه ، كما جعل البيت مثابة للناس وأمنا !

ومن هنا تلاقت « الأشهر الحرم » بمواقيت الحج والعمرة : فذو القعدة شهر الإعداد والتأهب ، وذو الحجة شهر الوصول والأداء ، والمحرم فيه تتم العودة والإياب : أما رجب الفرد فذلك شهر فى وسط العام يطيب فيه لكثير من الزائرين الاعتمار .

هذه هى الفائدة الأولى التى قارنت هذا التشريع الإلهى الحكيم .

أما الفائدة الثانية : ففيها تربية وتهذيب للنفوس من جانب آخر غير جانب الحج والعمرة وزيارة الله فى بيته ؛ ذلك أن ما فطر عليه الناس من الانسياق الى عوامل التنازع والخلاف ، يفضى بهم فى كثير من الأحيان الى الحرب والقتال ، ومحاولة كل فريق أن ينتصر على خصمه بكل وسيلة يستطيعها ؛ فإذا كان للناس أشهر معدودة فى كل عام ، يقفون فيها خصوماتهم ، ويكفون عن نزاعهم وحروبهم ، ويعيدون فيها السيوف الى أغمادها ؛ فإن ذلك سيعود على بنى الإنسان بتخفيف كثير من ويل الحرب وسفك الدماء ، وربما سكنت فى هذه الفترة نفوس ، وهدأت قلوب ، ووجدت أسباب النزاع جوا هادئا خاليا من قعقعة السلاح ، فاستراحوا من الحرب ، وحفظوا بذلك المهج والأموال والجهود !

تصوروا أن الحربين العالميتين اللتين شهدهما هذا الجيل فى أقل من ثلاثين عاماً قد بقيت كل منهما مضطرمة النار بضعة أعوام ، تتصارع فيها القوى البشرية وتتناحر ، وتفنن فى ابتداع أسباب الهلاك والاستئصال ، حتى اندكت بلاد ، وتزلزلت أمم ، وزهقت ملايين من الأرواح ، وبددت ملايين من الأموال ، وضيعت قوى وجهود كان البشر فى حاجة إليها ؛ فلو أن للإنسانية فترة كهذه الفترة التى يقررها الإسلام « بالأشهر الحرم » تغمد فيها السيوف ، وتسكت فيها المدافع ، وتسكن فيها الطائرات والقاذفات وما إليها ، أفما كان هذا بلسما يشفى الجراح ، وروحاً يسرى إلى القلوب والنفوس ، ولعله يفتح إلى السلام أبواباً ، ويهدى إلى التفاهم وحسم الخلاف بالتى هى أحسن !

إن الناس إذا كفوا عن الخصومات والحروب فى هذه الأشهر الحرم خضوعاً لأمر الله ، ونزولا على حكمه ، سيذكرون أن الذى أمرهم بذلك ،

ودعاهم إليه ، وحكم بتقديس هذه الأشهر ، قد أمرهم بأشياء أخرى فيها مصلحتهم وفيها سعادتهم : ذلك أن يعتقوا مبادىء الحق والعدل والإنصاف ، وأن يكونوا متعاونين فى هذه الحياة على إسعاد أنفسهم ، لا على خلق أسباب الشقاء والنزاع ، وإذكائها بالحروب والغارات وسفك الدماء : فإذا ذكروا ذلك تقاربت مسافات الخلف ، وتعاطفت القلوب إلى السلام والخير ، وأنصتت الآذان إلى دعوة الله التى يناشد بها البشر فى كتابه الكريم حيث يقول : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »[1] وعلى لسان رسوله الأمين حيث يقول : « أيها الناس ! إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ؛ كلكم لآدم ، وآدم من تراب »[2] .

أما والله لو وُفق الناس الى أن يفقهوا دعوة الإسلام على حقيقتها ، لكان لهم فى الحياة شأن غير هذا الشأن ، ولوصلوا ما انقطع من أسباب السعادة والأمن والسلام ؟

حكمة عمر

توفى رجل بجوار أبى ذر الغفارى ، وكان مسرفا على نفسه ، فتحامى الناس جنازته ، وبلغ ذلك عمر ، فأمر أهله أن يُغسلوه متى فرغوا من تجهيزه ، ففعلوا ، فشهد جنازته والناس معه ، فلما دفن وقف على قبره وقال : رحمك الله أبا فلان ، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد ، وعفرت لله وجهك بالسجود ، فان قالوا مذنب وذو خطايا ، فمَن منا غير مذنب وذى خطايا ؟

وأحسن ما قيل فى الرجاء هذا البيت :

وإنى لأرجو الله حتى كأننى ... أرى بجميل الظن ما الله صانع

---

(١) ١٣ / الحجرات .

(٢) من خطبته صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع .

نظر الاسلام الى النفاق والمنافقين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى

النفاق داء قديم ابتلى به الناس ، وأغلب الظن أنه نشأ مع الانسان : فقد فطر الله الناس مختلفى الطبائع قوة وضعفا ، وشجاعة وجبنا ؛ والنفاق فى أكثر الأحيان يلازم ذوى النفوس الضعيفة التى يسهل تلوينها بوسائل الإغراء . وقد عرّف العلماء النفاق بعبارات كثيرة . فعن الحسن : النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج . وعن عبد الله بن جراد : المنافق يملك عينه يبكى كما يشاء . قال المناوى لأنه ذو لونين باطن وظاهر ، ويقين وشك ، وإخلاص ورياء ، وصدق وكذب ، وصبر وجذع . وإن أشهر هذه العبارات وأجمعها ما عرفه به بعضهم ، وهو : أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن . فإذا أظهر الإنسان خلاف ما أبطن من عقيدة التوحيد بالله وبأنبيائه وباليوم الآخر ، فهو منافق كافر ؛ وإذا أظهر خلاف ما أبطن من غير ذلك ، فهو منافق مخادع .

وعلى هذا فالرياء ، والخداع ، والتدليس ، والمصانعة ، والمداهنة : كلها أفراد لهذا الجنس البغيض : أعنى النفاق .

وقد تحدث الاسلام كثيرا عن نوع خاص من النفاق ، وهو النفاق فى العقائد : وهو أن يظهر الانسان الإسلام ويبطن الكفر ؛ لأنه أشد أنواعه خطرا على الأمة . والمنافقون على هذا الوجه من شر ما تبتلى بهم الأمم والجماعات ؛ لأنهم يظاهرون أعداءها ، ويدلونهم على مواطن الضعف فيها ، وهم على بينة منها .

وقد قسا القرآن وقست السنة فى عقاب هؤلاء ، وسلكاهم فى نظام الكافرين : قال الله تعالى : « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » . بل جعلهم القرآن شرا من الكافرين ؛ قال تعالى : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً » . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « تجد من شرار

الناس يوم القيامة ذا الوجهين : الذى يأتى هولاء بوجه ، وهؤلاء بوجه » . وعن أبى فضالة قال : كان بعض المهاجرين يقول : والله ما أخاف المسلم ولا أخاف الكافر ؛ أما المسلم فيحجزه إسلامه ، وأما الكافر فقد أذله الله عز وجل ، ولكن كيف لى بالمنافق ؟

وقد يصح تسمية هؤلاء « الطابور الخامس » بلغة العصر الحديث . وقد أدركت الأمم شر هذا الطابور وفرضت عليه أقسى العقوبات .

وقد استنكر الاسلام النفاق فى الأقوال والأعمال فى أى صورة من صوره وعلى أى وجه من وجوهه ، لسوء أثره فى حياة الأمم والأفراد . فالنفاق رذيلة اجتماعية خطيرة ، ترفع الثقة بين الناس فى شئونهم ، وبالتالى تذهب بالتعاون بينهم ، وإذا انعدمت الثقة بين الناس وفقد بينهم التعاون ، وقفت عجلة الحياة فيهم ، وركدت ريحهم ، وحل بهم الجمود والبوار . فعلى هذين الركنين ، أعنى الثقة والتعاون . تقوم صروح التجارة والصناعة والعلم ، ومظاهر الحضارة عامة .

وبهذين الجناحين طارت أمم فى سبيل المجد وعزت وسادت ، وبدونهما تخلف عن ركب الحضارة من الأمم من تخلف .

والنفاق فى ذاته خلق ذميم ، وهو مدعاة لطائفة أخرى من الأخلاق الذميمة : كالغدر ، والكذب ، والخيانة ، والرشوة ، والتجسس ، والنميمة ، والفجور ، والجبن : وهذه كلها أدواء تفتك بجسم الأمة فتحيلها هيكلا متخاذلا ، لا تنهض برسالتها ، ولا تصلح لمنافسة الأمم ومزاحمتها .

لهذا كله أنكر الإسلام النفاق ، وكره المنافقين ، وصورهم فى أشنع الصور وأقبحها ، وأنذرهم شديد العذاب وسوء المآب ، ولم يعتدّ بأعمالهم لمجانبتها الإخلاص والقصد الحسن الى ثواب الله وجزائه .

قال تعالى : « بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما » . وقال تعالى : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ، هى حسبهم ، ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم » . وقال تعالى : يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » . وقال تعالى : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن المنافق ليصلى فيكذبه الله عز وجل ، ويصوم فيكذبه الله عز وجل ، ويتصدق فيكذبه الله ، ويقاتل فيقتل فيجعل فى

النار » . وعنه عليه السلام : « المنافق يعبد هواه ، لا يهوى شيئاً إلا ركبه » . وعن عمر رضى الله عنه : « ما أخاف عليكم أحد رجلين : رجل مؤمن قد تبين إيمانه ، ورجل كافر قد تبين كفره ، ولكن أخاف عليكم منافقاً يتعوذ بالإيمان ويعمل بغيره » . وعن عبد الله بن عمر : أنه رأى الناس يدخلون المسجد فقال مستفهما : إن رأوا منكراً أنكروه وإن رأوا معروفا أمروا به ؟ قالوا : لا ، قال فما يصنعون ؟ قالوا : يمدحونه ثم يسبونه اذا خرجوا من عنده . فقال ابن عمر : إن كنا لنعد النفاق على عهد رسول الله فيما دون هذا . وعن بلال بن سعد : المنافق يقول بما يعرف ، ويعمل بما ينكر .

هذا نظر الاسلام الى النفاق والمنافقين ، وهذا موقفه منهم : وإنه لموقف حازم وصارم هم جديرون به ؛ لأنهم جراثيم فى أجسام الأمم يفتكون بها ويسلبونها أمنها واستقرارها .

وقد راجت سوق النفاق فى هذا العصر ، وساعد على رواجها روح التسلط فى الأمم ، وشهوة الأفراد القوية فى الربح المادى من أى وجه وبكل حيلة ، فأصبحت الأمم القوية تخادع الأمم الضعيفة عن حرياتها ، وتساومها فى مصائرها ، وأصبح الأفراد يخادع بعضهم بعضا ، وشاع النفاق فى كل شأن من شئون الناس ، وصار غير مستغرب ولا مستنكر أن يعد الرجل ولا يفى ، ويستقرض ولا يؤدى ، ويقول ولا يعمل ، ويهنئ وكان من أمانيه أن يعزّى ، ويتظاهر بالصداقة وقلبه مملوء بالحقد والضغينة .

وقد ضاقت الأمم والأفراد ذرعا بهذه الحال : إذ تجلت لهم أخطارها ، وتكشفت مآسيها ، فساءت علاقات الأمم وساورتها الشكوك والريب ، وقلت ثقتها بالعهود والمواثيق ، ونظر بعضها الى بعض نظرة الحذر والوجل ، وكذلك نظر الأفراد بعضهم الى بعض .

وحاولت المدنية الحديثة أن تبرر النفاق وتضفى عليه ألوانا براقة تخفى شينه وتغطى عيبه ، فسمته مرة « دبلوماسية » ، ومرة « لباقة » ، وثالثة « مرونة » ، ورابعة « مجاملة » الى غير ذلك من الأسماء : ولكنها محاولة فاشلة ، هيهات أن تقلب حقيقته ، وتقى الناس شره وأخطاره ؛ وهيهات أن تغير من نظر الاسلام

معجزة مجهولة

من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى
المدرس بكلية اللغة العربية

كم للنبي صلى الله عليه وسلم من معجزات تظهر لكل من يتدبر ويتأمل ، وهذه ميزة معجزاته على معجزات غيره من الأنبياء : فقد كانت معجزاتهم حسية يدركها الحس بسهولة : وأما معجزاته فهى أرقى من أن يتناولها الحس ، لأنها من أفق أعلى من أفقه ، فلا يدركها إلا العقل المتدبر ، وما أسمى ما يختص العقل بإدراكه ، ولا يتطلع الحس الى تناوله .

وهذه معجزة مضى عليها أجيال من الدهر تحققُ من أمرها ، وتُقوى من شأنها ، فلا يزيدها مر الأجيال إلا ثباتا ، ولا يزيدها توالى الحقب إلا قوة ، حتى آن لنا الآن أن نتحدث عنها ، وأن نظهرها للناس جلية واضحة ، لايعتريها أدنى شك ، ولا يخفيها أدنى لبس : وكيف يعتريها شيء من الشك واللبس وقد مر عليها ست وستون ومائة سنة بعد الألف ، وهى قائمة تتحدى الزمن ، وتتحدى أهله فى الشرق والغرب ، وفى الشمال والجنوب ، وفيما كان ظاهرا من المعمور وما كان مستورا منه ، فعجز الزمن وأهله عن تحديها ، وسيظل عاجزا عن هذا الى ما شاء الله تعالى ؟

قد وردت هذه المعجزة فى آية من آيات القرآن لا يُشك فى أمرها : لأن آيات القرآن قد حفظت منذ نزولها فى الصدور وغيرها مما حفظت فيه ، ثم حفظت فى المصاحف عقيب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا فى قوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتمَ النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما » الآية - ٤٠ - من سورة الأحزاب .

فقد قطعت هذه الآية فى أمر لا سبيل للبشر أن يقطعوا فيه . ولا يمكن عاقلا منهم أن يورط نفسه فى شأنه ، بل يرى من مصلحته أن يتركه للزمن ، وأن يمتنع عن الحكم فيه بإثبات أو نفى . لأنه لا يدخل فى علمه ، ولا يمكنه الجزم بشىء فيه ، فكيف إذا كان يدعى النبوة ، وهى أسمى مرتبة فى البشر ، فلا يمكن صاحبها أن يعرضها للتهمة بما لا يرضاه عاقل من عامة الناس لنفسه ؟

لقد ختمت هذه الآية عهد النبوة ، وحكمت بأنه لا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، مع أنه كان قد مضى على الخليقة آلاف لا تحصى من السنين . والأنبياء يتعاقبون فيها نبيا بعد نبى ، من آدم ، إلى شيث ، إلى إدريس ، إلى نوح ، إلى إبراهيم ، الى إسماعيل وإسحاق ، الى يعقوب ، الى يوسف ، الى موسى وهارون ، الى داود ، الى سليمان ، الى عيسى بن مريم ، وبين هؤلاء الأنبياء أنبياء لا يحصون عدا ، لأن هناك من الأنبياء من لم يرد إلينا حديث عنهم ، كما قال تعالى فى الآية -١٦٤- من سورة النساء « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما » .

وكان كل نبى من هؤلاء الأنبياء يبشر بمن يأتى بعده منهم ، ويأمر أتباعه بانتظاره ، ويحثهم على الايمان به إذا ظهر بعده : وقد وردت بذلك بشارات كثيرة فى كتب الأنبياء ، فوردت فى صحف ابراهيم عليه السلام ، ووردت فى توراة موسى عليه السلام ، ووردت فى زبور داود عليه السلام ، ووردت فى انجيل عيسى عليه السلام ، وفى غير هذا من كتب الأنبياء .

وكل هذا كان يدعو محمدا صلى الله عليه وسلم أن يحجم عن قطع عهد النبوة لو كان أمره من نفسه ، لأنه يخالف ماتوالت عليه الأجيال ، ويخرج عما تعاقبت عليه السنون من بدء الخليقة إلى عهده ، والبشر فى أحكامهم لا يخرجون عن مثل هذا الحكم ، ولا يخالفون نظاما جرت عليه السماء من قديم الزمن ، بل كان هذا يدعوه أن يجرى على هذه السنة ، فيأتى ببشارة من البشارات ، ويسن فى ذلك سنة أولئك الأنبياء ، ترويجا لأمره بين الناس ، ولاسيما أن للناس شغفا بالبشارات والتنبؤات ، وميلا إلى تصديق من يذهب هذا المذهب من الكهان ونحوهم .

فالأمر فى قطع عهد النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ليس منه ، وإنما هو من الله الذى أنزل عليه القرآن الكريم ، وأنزل عليه هذه الآية التى تقطع عهد النبوة بعده ، وتحكم بأنه خاتم النبيين ، وبأن شرعه آخر الشرائع ، وتتحدى الزمن فى ذلك ، فلا يجرؤ على التحدى ، وتتحدى أهله من الموافقين والمخالفين ، فلا يجرءون على معارضة حكمها ، وها هى ذى باقية بعد ست وستين ومائة بعد الألف من السنين ، تجدد ذلك التحدى ، وقد زادتها تلك المدة الطويلة قوة فى تحديها : لأن هذه المدة تكفى لظهور كثير من الأنبياء ؛ وقد كان الأنبياء قبلها يتوالى ظهورهم ، ويتعاصر الكثير منهم ، فما بالهم قد انقطعوا فى هذه المدة الطويلة ؟ وما بال الزمن قد صار لا يتطلع إلى نبوة كما كان يتطلع ؟ وما بال أهله قد صاروا الآن لا يتطلعون إلى نبوة كما كانوا يتطلعون ؟ .

لقد فتح النبى صلى الله عليه وسلم للناس باب الاجتهاد بعده ، وجعل العلم هو الوسيلة لذلك الاجتهاد ، فحث الناس على طلب العلم والحكمة ، ولم يفعل مثل هذا نبى قبله ، فصار العلم هو الوسيلة للإصلاح بعد الدين ؛ لأن الدين هو الأساس ، والعلم يقيم بناءه على أساسه ؛ فانقطع أمل الناس فى نبوة تظهر لهم ، واعتمدوا على العلم فى إصلاح أحوالهم ، وهم فى هذا يعملون بما جاء به الإسلام من حيث لا يشعرون ، ويصدقون ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم من انقطاع عهد النبوة وهم لا يعلمون : ولا فرق فى هذا بين المسلمين منهم وغيرهم . وإذا كانت هناك طوائف لا تعترف بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو النبى الذى بشر به الأنبياء السابقون ، ولا تزال تنتظر نبيا يأتى بعده ، فإن فيما مضى بعده من هذه المدة الطويلة ما يكفى لقطع أملها فى ذلك ؛ وإن فى أحوال عصرنا ما يجب أن يصرفها عن خطئها ، لأن الأمر استقر فيه على الاكتفاء بالنبوات السابقة ، فعكف فيه أهل كل ديانة على ديانتهم ، وقاموا فى حدودها يتولون إصلاحهم بأنفسهم ، ولا ينتظرون فى هذا وحياً من السماء ، ولا يترقبون نبيا يبعث إليهم .

لقد حاول الأسود النخعى فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم أن يتحدى ماجاء به من أنه خاتم النبيين ، فادعى النبوة فى اليمن ، وكان يشعبذ ويُرى الجهال

الأعاجيب ، ويسبى بمنطقة قلب من يسمعه ، ولكن أمره لم يلبث أن بطل بيد أقرب الناس إليه ، فقتلته امرأته فى أبيها الذى كان قد قتله .

ثم حاول مسيلمة الكذاب ذلك أيضاً فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخذ يأتى بأسجاع تافهة يقلد بها القرآن ، فلم يلبث أن بطل أمره أيضاً ، وقتل فى أوائل خلافة أبى بكر رضى الله عنه .

وبعد ، فإنه كان لنا أن نسكت عن التحدى بهذه المعجزة عشر سنين بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ، أو مائة سنة ، أو خمسمائة سنة ؛ ولكنه لا يصح لنا الآن أن نسكت عن التحدى بهذه المعجزة بعد أن مضى عليها ست وستون ومائة سنة بعد الألف . إنها معجزة قائمة تتحدى الزمن : إنها معجزة لها أكبر شأن فى تاريخ البشر : لأنها فصلت فيه بين عهدين : عهد توالى فيه أنبياء منذ الخليقة على القيام بإصلاح حال الأرض ، وتولى فيه الإصلاح وحى السماء : وعهد انقطع فيه ذلك الوحى من الأرض ، وترك فيه أمر أهل الأرض لأنفسهم ، بعد أن أدى الوحى رسالته بينهم .

ولا شك أن مثل هذا لا يمكن أن يحكم به بشر ، وإنما هو حكم الله تعالى ، ومعجزة خطيرة من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم .

الاتعاظ

قال العتبى : دخل رجل من عبد القيس على أبى فوعظه ، فلما فرغ قال أبى له : لو اتعظنا بما علمنا ، لانتفعنا بما عملنا ؛ ولكنا علمنا علما لزمتنا فيه الحجة ، وغفلنا غفلة من وجبت عليه النقمة ؛ فوعظنا فى أنفسنا بالانتقال من حال الى حال ، ومن صغر الى كبر ، ومن صحة الى سقم ، فأبينا إلا المقام على الغفلة ، وإيثاراً لعاجل لا بقاء لأهله ، وإعراضاً عن آجل إليه المصير .

وقال رجل للرشيد : يا أمير المؤمنين إنى أريد أن أعظك بكلام فيه بعض الغلظة فاحتملها . فقال : كلا ! إن الله أمر من هو خير منك بإلانة القول لمن هو شر منى ! .

بين العطار والخشاب

من أدباء القرن التاسع عشر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

قلنا فى حديث مضى تحت هذا العنوان : إنه كان بين العطار والخشاب مساجلات شعرية ، استرعى نظرنا منها موشحتان ، نظم أولاهما العطار ، وعارضه الخشاب بالأخرى : وإنى رأيت أن أجعل منهما موضوع « موازنة » بين الأديبين : ثم بينهما وبين وشاحى العصر الحاضر ، فى حديث آخر . فهذا حين الوفاء بهذا الوعد .

قال العطار : وأغلب الظن أنه إنما كان يقول الشعر ارتياضاً ، وإظهاراً للبراعة والقدرة على قوله . لا خضوعاً لعواطف تجيش به فى صدره ؛ وربما أيد هذا الظن ، أن ترجمته تقول : « إنه كان يقول الشعر أحيانا » مع اعترافها بأن له ديوانا : و « فلان يقول الشعر » غير « فلان شاعر » . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، ما قدمنا من تفرد العطار فى العلوم لا سيما الحكمية وما يتبعها من الرياضيات والهندسة ، فإن هذا التعمق العلمى حجاز عن التفوق فى الشعر ؛ كما هو معروف . فأما صديقه الخشاب ، فكان شاعراً ، تدفعه العواطف ، وتحدو به نزغات شياطينه ، وعوامل دواعيه .

بدأ العطار فقال :

أما فؤادى فعنك ما انتقلا
فلمْ تخيرتَ فى الهوى بدلا ؟ ـ فاعجبْ ـ
يا مُعرضاً عن محبِّه الدَّنِف
ومغرما بالجمال (كذا) والصَّلَف
ومَن به زاد فى الهوى شغفى

أما كفى يا ظلومُ ما حصلا
حتى جعلت الصدودَ والملَلا — مذهبُ —
فتشْ فؤادى فليس فيه سوى
شخصك يأيها المليح ثوَى
قد ضل قلبى لسُكْنه وغوَى
وهكذا من يحب معتدلا
لم يلقَ إلا تأسفا وقِلا — مشرب —

وهى طويلة ، قال مترجموه : إنها فى ديوانه ، الذى لم أعثر عليه بعد طول البحث ، بيد أنِ ما نقلناه منها كاف فيما نريد .

* * *

قال العلامة الجبرتى . فى ترجمة الخشاب : « ولما وردت الفرنساوية لمصر . اتفق أن عَلِق شابا من رؤساء كتابهم كان جميل الصورة ، لطيف الطبع ، عالما ببعض العلوم العربية ، مائلا الى اكتساب النكات الأدبية ، فصيح اللسان بالعربى ، يحفظ كثيراً من الشعر : فلذلك المجانسة ، مال كل منهما للآخر ، ووقع بينهما توادد وتصاف ، حتى كان لا يقدر أحدهما على مفارقة الآخر : فكان المترجم تارة يذهب لداره ، وتارة يزوره هو . ويقع بينهما من لطف المحاورة ما يتعجب منه . وعند ذلك قال المترجم الشعر الرائق ، ونظم الغزل الفائق . ولما نظم الشيخ حسن العطار موشحته التى يقول فيها : « أما فؤادى فعنك ما انتقلا الخ » عارضه المترجم المذكور بقوله فى معشوقه الذى ذكرناه :

يهتز كالغصن مال معتدلا
أطلعَ بدرا عليه قد سدلا — غيهبُ —
رِيمٌ يَصيدُ القلوبَ بالدَّعَجِ
يسطو بسيف اللّحاظ فى المُهَجِ
يزهو لعينى بمنظر بَهِج

فكيف أبغي بحبه بدلا
وليس لي عنه ـ جار أو عدلا ـ مهرب ـ

وضاحُ نورِ الجبين أبلجُه
وردي خدٍ زها توهجُه
إليه شوقي يزيد لاعجُه

فلست أصغي لعاذل عَذَلا
وعنه ـ والله ـ لا أتوب ولا ـ أرغب ـ

ومنها :

مولاي رفقا بصبك الدنف
قد كدت أقضي عليك من أسف
تلافَ رُوحي ، فقد دنا تلفي

من ريقك العذب أرْوني نَهَلا
وهات كأسي ، وطُف به ثَمِلا ـ واشرب ـ

راحاً سناها يُضيء كاللهبِ
تبسم عن رطب لؤلؤ الحَبَب
(وعن عقيق من ثغرك الشنب)

بين رياض ومُسمعٍ غزَلا
على المثاني إذا شدا رَمَلا ـ أطرب ـ

والوُرق من حسن صوتها الغَرِد
تُميل قُضْبَ الرياض بالمَيَد
وتوّجَ الدوحَ لؤلؤُ البَرَد

تاجاً من الدر نظمُه كلا
فكن من اللهو سالكا سبلا ـ وادأب ـ

* * *

وقد بدئت كلتا الموشحتين بقُفل ، فهما من الموشحات التامة ، وهى عند الوشاحين ما بدئت بقفل ؛ ويقابلها « العرجاء » أو « القَرْعاء » وهى ما بدئت ببيت : والأقفال : ما اتحدت أجزاء ، ووزنا ، وقافية . والأبيات : ما اتحدت أجزاء ، ووزنا فقط . ومن الأقفال والأبيات يتألف الموشح : على أن تامه وأعرجه ، لا بد أن يختم كلاهما بقفل يسمى « خَرْجة » هى موضع البراعة والإبداع فى كل موشحة ؛ وللخرجة شروط : منها أن تسبق بلفظ يدل على الاقتباس ، كقال أو قلت ، أو أنشد ، مثلا : وأن تكون على لسان إنسان أو حيوان أو طير ، مثلا . وهذه فذلكة لا بد منها ، قبل نقد الموشحات ، حتى يستقل القارىء الجمهورى بفهم الكلمات الاصطلاحية بمجرد قراءتها فى مجلة دينية سائرة .

قال مولانا الأستاذ الأكبر العطار شيخ الجامع الأزهر :

أما فؤادى ، فعنك ما انتقلا
فلمْ تخيرت فى الهوى بدلا ـ فاعجب ـ

وقال الخشاب الشاعر :

يهتز كالغصن مال معتدلا
أطلع بدراً عليه قد سدلا ـ غيهب ـ

ويبدو لأول النظر ، أن أسلوب العطار فى قفله أسلوب علمى تأليفى ، وأن أسلوب الخشاب أسلوب شاعر مطبوع ؛ وأنه لو جرد كل من القفلين من نسبته إلى قائله ؛ ثم عرضا على ناقد أديب ، لحكم لأول نظرة ، بأن هذا « لعالم » وهذا « لشاعر » .

فأما المعنى : فان شيخنا العطار سلك فيه مسلكا تجاريا ، أساسه « التبادل » الذى يمت الى « البيوع وملحقاتها » بمَتات قريب ، ولم يذهب فيه مذهباً غرامياً مألوفا ، أساسه « التضحية » ونكران الذات » . وما أدرى من المخاطب بالأمر فى قوله : « فاعجب » : أهو يعنى نفسه ، أم يعنى الحبيب ، أم يعنى القارئ . ؟

وأيا ما كان ، فلا موضع للعجب ما دام انتقال المحبوب إلى البدل عن تخير ، فإن انتقال « البائع » الى الثمن المربح ، والبدل الأرجح ، فى طبيعة الحياة العامة .

وانبرى الشاعر الخشاب ـ فى ذلة العاشق المدله ـ يتلذذ بوصف محاسن المحبوب ، التى أوقعته فى شراكه ، ليقوم بذلك عذره عند عاذليه ، ثم ليرتب عليه مذهبه التقليدى فى الحب ، أو بالحرى لينزل على شرع الغرام ، الذى قضى به دين الهوى ، على كل من اعتنقه من فؤاد جريح ! . بيد أنى لا أطرب لهذه الصورة المستحيلة ، فى قوله : « أطلع بدراً عليه قد سدلا ـ غيهب ـ » وإن كان لها مجاز من التخييل ؛ لأن من شأن البدر أن يهتك أستار الظلام ، فكيف يسدل الغيهب ـ وهو الظلام ـ على بدر طالع ؟ ! ولعل أحسن منه فى هذا المعنى ، قول حمدة الأندلسية :

إذا سدلت ذوائبها عليها ... رأيت البدر فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق ... فمن حزن تسربل بالحداد

وقول ابن شهيد الأندلسى :

شربت أعضاؤه خمر الصبا ... وسقاه الحسن حتى عربدا
رشأ ، بل غادة ممكورة ... عممت صبحاً بليل أسودا

***

عاد مولانا الأستاذ الأكبر ، فقال فى بيته الأول وقفله الثانى :

يامعرضاً عن محبه الدنف
ومغرماً بالجمال (كذا) والصلف
ومن به زاد فى الهوى شغفى
أما كفى ياظلوم ماحصلا ... حتى جعلت الصدود والملا ـ مذهب ـ ؟

وعاد الخشاب كذلك فقال فى بيته الأول وقفله الثانى :

ريم يصيد القلوب بالدعج
يسطو بسيف اللحاظ فى المهج
يزهو لعينى بمنظر بهج

فكيف أبغى بحبه بدلا
وليس لى عنه جار أو عدلا ـ مهرب ـ

« الدنف » بفتح الون مصدر وصف به ، وبكسره صفة : و « باجمال » فى الجزء الثانى ، لا معنى لها ، وإن كانت الرواية : ولعلها « الدلال » وما زال أسلوب العطار فى قفله الأول أسلوبه هنا : ولعل ما يشيع من عامية فى الجزء الأول من قفله : « أما كفى يا ظلوم ما حصلا » أبرز الشواهد على ضعف أسلوبه ، وضاعف من عاميته استعماله « ظلوم » وصفا ، والشعراء يذكرونه فى الأعم الأغلب علما ؛ وحسب الشاعر فى شكاته ما يشعر به هذا العلم . فأما المعنى ، فهو شرح وتوضيح لما أجمله الشيخ فى قفله الأول ، على أنه شرح أضعف المعنى وأدنفه ؛ فإن انتقال المحبوب عنه إلى « بدل متخير » لم يجعل لعد ذنوبه إليه من الإعراض والصد والملل موضعا ، ولا لامتنانه عليه بزيادة شغفه فى هواه قيمة . وكل ما يفهمه القارىء للبيت والقفل جميعا ، أنه موشح « تشليق بلدى » شغى به مولانا الأستاذ نفسه من هذا الحبيب الغادر ، الذى لم يعرف مقدار تنزله من عليائه السماوى الدينى ، إلى حب هذا المخلوق الأرضى الصلف الظالم ، الذى تمرد على سلطان الأزهر ، وألحد فى جلال الشيوخ . ويا حبذا لو شرح الشيخ : « ما حصل » فإن فى النفس منها أشياء !

وكذلك أسلوب الخشاب : هو أسلوبه فى قفله الأول ، أسلوب وشاح مصقول ، وشاعر يمده طبع . وأما معانيه ، فهى امتداد وترفيع للأساس الذى أرساه بقفله الأول ، من تعداد شمائل الحبيب ، وأنه ريم دعجه ينتظم القلوب جميعا ، وأن سيف لحاظه يفتك بالأرواح جميعا ، فهو فتنة عامة ، لا حبيب اختصم فيه الشيخ وآخر ، فتخير الآخر ! ثم أنكر على نفسه وعلى عاذله أن يبغى بحبه بدلا ؛ وانتهى ـ بعد هذه المقدمات ـ إلى مقطع الرأى فى مذهبه الغرامى ، وهو أنه : « ليس لى عنه جار أو عدلا مهرب . ومن محاسن ذوق الخشاب ، أنه نسب خاطر التبدل إلى نفسه لا إلى الحبيب ، كما فعل شيخنا ؛ ولا غرو ، فإنه ذوق شاعر .

(يتبع)

علماء الأزهر

يقررون دعوة المسلمين الى

الجهاد بالنفس والمال لإنقاذ فلسطين

سارع رجال الأزهر المسئولون ، وأعضاء جماعة كبار العلماء ، الى الاجتماع والتشاور فى توحيد جهودهم لمناصرة فلسطين ، وشد أزرها ، ومساعدتها على اجتياز تلك المكيدة الكبرى التى دبرت لها .

وقد بدأوا أول اجتماعاتهم فى ١٩ من المحرم سنة ١٣٦٧ هـ (٢ من ديسمبر سنة ١٩٤٧ م) بالرواق العباسى بالجامع الأزهر الشريف . مفضلين الاجتماع فى الأزهر عما سواه من أماكن أخرى ؛ لأنه كان دائما مقر الاجتماعات لبحث خطير الأمور وجليلها فى تاريخ مصر والإسلام ؛ فكم من فتوى خطيرة صدرت من هذا المكان اهتزت لها أرجاء العالم ! وكم من أمر دبر لمختلف الشئون العامة والهامة فى هذا المكان ! ومنه انبعث أول صوت ينادى بالحرية ، ومنه اليوم ينبعث أول صوت ينادى بوجوب الجهاد على المسلمين لإنقاذ فلسطين .

وعند الساعة الحادية عشرة كان قد وصل الى الرواق العباسى حضرات أصحاب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر ، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز مدير الأزهر ، والشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام للجامع الأزهر ، والشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية السابق ورئيس لجنة الفتوى ، والشيخ محمد مأمون الشناوى وكيل الأزهر السابق ، والشيخ محمد حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية ، والشيخ ابراهيم حمروش ، والشيخ عيسى منون شيخ كلية الشريعة ، والشيخ الحسينى سلطان شيخ كلية أصول الدين ، والشيخ عبد الجليل عيسى شيخ كلية اللغة العربية ، والشيخ محمد الجهنى شيخ معهد القاهرة ، وباقى أعضاء جماعة كبار العلماء ، وعدد كبير من أساتذة الكليات الأزهرية .

وقد بدأ المجتمعون بدراسة ما يجب عمله على رجال الدين إزاء هذا الحادث الخطير (قرار هيئة الأمم بتقسيم فلسطين) وواجبهم بالنسبة لتوجيه الأمة الإسلامية الى واجبها فى تلك المحنة التى نزلت بأحد أقطارها .

وقد استقر رأى المجتمعين الى إصدار نداء الى الأمة الاسلامية والعربية ، وقد نشرناه فى آخر هذا البيان .

قيادة الجماهير .

وتناولوا بالبحث عدة اقتراحات أخرى ، منها اقتراح من صاحب الفضيلة المدير العام للأزهر باجتماع العلماء يوم السبت ٢٣ من المحرم سنة ١٣٦٧ هـ (٦ ديسمبر سنة ١٩٤٧ م) بالأزهر والدعوة الى الجهاد لجميع طبقات الأمة ، والخروج معهم فى مظاهرة كبرى يتقدمونها الى سراى عابدين العامرة ، ورفع كلمة باسم علماء الأزهر الى مقام جلالة الملك فى تأييد فلسطين .

وقد أرجىء بحث هذا الاقتراح الى جلسة يوم السبت التى تقرر أن تبدأ فى الساعة العاشرة صباحا .

تنظيم الكتائب الأزهرية :

وألفت لجنة برياسة فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز المدير العام للجامع الأزهر ، وعضوية حضرات الأساتذة : القائمقام محمد بهجت بك رئيس التدريب العسكرى ، وسعد الله هاشم بك ، وشيخ كلية اللغة العربية ، وشيخ معهد القاهرة ؛ وذلك لتنظيم تطوع طلبة الأزهر فى كتائب ، وتدريبهم على الأعمال العسكرية .

جمع التبرعات :

وألفت لجنة من أصحاب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن ، والشيخ حسنين مخلوف ، والشيخ محمود أبو العيون ، والشيخ محمود شلتوت ، لجمع التبرعات وفق القواعد التى تقرر ، وقد رئى أن يكون أدنى حد للتبرع ٢ ٪ من مجموع المرتب شهرياً للمدرسين فى الأزهر .

فتح الاكتتابات :

وقد اكتتب الحاضرون بالمبالغ الآتية كافتتاح للتبرع :

٥٠ جنيها من كل من حضرات الشيخ عبدالرحمن حسن والشيخ عبدالمجيدسليم والشيخ مأمون الشناوى مع التبرع بمبلغ ١٠ ٪ شهريا من مرتب الأول ومن معاش ومرتب جماعة كبار العلماء للأخيرين ، و ٥٠ جنيها من كل من الشيخ حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية والشيخ عيسى منون شيخ كلية الشريعة والشيخ عبد الرحمن عيد المحلاوى ، و ٣٠ جنيها من كل من الشيخ محمد عبد اللطيف دراز مدير الأزهر والشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام للأزهر ، و ٢٠ جنيها من كل من الشيخ عبد الجليل عيسى والشيخ ابراهيم الجبالى والشيخ الحسينى سلطان والشيخ محمد الجهنى شيخ معهد القاهرة ، وعشرة جنيهات من كل من حضرات الشيخ ابراهيم حروش مع خصم ٣ ٪ من معاشه ومرتبه فى جماعة كبار العلماء والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد غرابة والشيخ محمد عرفة والشيخ محمد العنانى والشيخ حامد محيسن والشيخ محمد العتريس والشيخ فرغلى الريدى والشيخ أحمد حميدة والشيخ محمد أبو شوشة والشيخ عفيفى عثمان والشيخ حامد جاد والشيخ محمد الشايب والشيخ عبد الرحمن تاج والشيخ محمود الغمراوى والشيخ على المعداوى والشيخ عبد الرحمن عليش ، وتبرع بمبلغ خمسة جنيهات كل من الشيخ محمد سامون والشيخ اسماعيل الدوى والشيخ منصور رجب والشيخ حسن مرزوق والشيخ عثمان صبرة والشيخ محمد البسيونى زغلول والشيخ موسى اللباد والشيخ عبد العزيز خطاب . وبلغ مجموع التبرعات فى هذه الجلسة ٦٧٠ جنيها مصريا .

وانتهى الاجتماع فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر . وفيما يلى نص النداء :

نـــــداء

إلى أبناء العروبة والاسلام

من علماء الجامع الأزهر الشريف

« هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ »

بسم الله الرحمن الرحيم .

يا معشر العرب والمسلمين ! قضى الأمر ! وتألبت عوامل البغى والطغيان على فلسطين ، وفيها المسجد الأقصى أول القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومنتهى إسراء خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليه .

قضى الأمر ! وتبين لكم أن الباطل ما زال فى غلوائه سادرا ، وأن الهوى مافتىء على العقول مسيطرا ، وأن الميثاق الذى زعموه سبيلا للعدل والإنصاف ، ما هو إلا تنظيم للظلم والإجحاف .

قضى الأمر ! ولم يبق بعد اليوم صبر على تلكم الهضيمة ، التى يريدون أن يرهقونا بها فى بلادنا ، وأن يجثموا بها على صدورنا ، وأن يمزقوا بها أوصال شعوب وحّد الله بينها ، فى الدين ، واللغة ، والشعور .

إن قرار هيئة الأمم المتحدة ، قرار هيئة لا تملكه ، وهو بعدُ قرار باطل جائر ليس له نصيب من الحق والعدالة . ففلسطين ملك العرب والمسلمين ، بذلوا فيها النفوس الغالية ، والدماء الزكية ، وستبقى إن شاء الله — رغم تحالف المبطلين — ملك العرب والمسلمين ، وليس لأحد كائنا من كان أن ينازعهم فيها أو يشطرها أو يمزقها .

وإذا كان البغاة العتاة قد قصدوا بالسوء من قبلُ هذه الأماكنَ المقدسة ، فوجدوا من أبناء العروبة والاسلام قساورة ضراغم ذادوا عن الحمى وردوا البغى على أعقابه مقلم الأظفار محطم الأسنة ، فإن فى السويداء اليوم رجالا ، وفى الدرعا آساد ، وإن التاريخ لعائد بهم سيرته الأولى .

يا أبناء العروبة والاسلام !

لقد أعذرتم من قبل ، وناضلتم عن حقكم بالحجة والبرهان ما شاء الله أن تناضلوا ، حتى تبين للناس وجه الحق سافراً . ولكن دسائس الصهيونية وفتنتها وأموالها قد استطاعت أن تجلب على هذا الحق المقدس بخيلها ورجلها فعميت عنه العيون ، وصمت الآذان ، والتوت الأعناق ، فاذا بكم تقفون فى هيئة الأمم وحدكم ، ومدعو نصرة العدالة يتسللون عنكم لواذا ، بين مستهين بكم ، وممالئ لاعدائكم ، ومتستر بالصمت متصنع للحياد .

فإذا كنتم قد استنفدتم بذلك جهاد الحجة والبيان ، فان وراء هذا الجهاد لإنقاذ الحق وحمايته جهاداً سبيله مشروعة ، وكلمته مسموعة ، تدفعون به عن كيانكم ، ومستقبل أبنائكم وأحفادكم ؛ فذودوا عن الحمى ، وادفعوا الذئاب عن العرين ، وجاهدوا فى الله حق جهاده !

« فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً » .

« الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً » .

يا أبناء العرب والاسلام !

خذوا حذركم ، فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً ؛ وإياكم أن يكتب التاريخ أن العرب الأباة الأماجد قد خروا أمام الظلم ساجدين ، أو قبلوا الذل صاغرين .

إن الخطب جلل ، وإن هذا ليوم الفصل ، وما هو بالهزل . فليبذل كل عربى وكل مسلم فى أقصى الأرض وأدناها من ذات نفسه وماله ، ما يرد عن الحمى كيد الكائدين ، وعدوان المعتدين . سدوا عليهم السبل ، واقعدوا لهم كل مرصد ، وقاطعوهم فى تجاراتهم ومعاملاتهم ، وأعدوا فيما بينكم كتائب الجهاد ، وقوموا بفرض الله عليكم ، واعلموا أن الجهاد الآن قد أصبح فرض عين

على كل قادر بنفسه أو ماله ، وأن من يتخلف عن هذا الواجب فقد باء بغضب من الله وإثم عظيم .

« إن اللهَ اشْتَرى من المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهمْ بأنّ لَهمُ الجنةَ يقاتِلونَ فى سبيل الله فَيَقْتلون ويُقتلَون وعْداً عليه حقًّا فى التوراةِ والانجيل والقرآنِ ، وَمَنْ أوْفَى بعهدِه مِن الله ؟ فاستبْشِرُوا بِبَيْعِكم الذِى بايَعْتم بِه ، وذلك هو الفوزُ العظيم » .

فاذا كنتم بإيمانكم قد بعتم الله أنفسكم وأموالكم ، فها هو ذا وقت البذل والتسليم ، فاوفوا بعهد الله يوف بعهدكم .

وليشهد العالم غضبتكم للكرامة ، وذودكم عن الحق .

ولتكن غضبتكم على أعداء الحق وأعدائكم ، لا على المحتمين بكم ، ممن لهم حق المواطن عليكم والاحتماء بكم ، واحذروا أن تعتدوا على أحد منهم ، إن الله لا يحب المعتدين .

ولتتجاوب بعدُ الأصداء فى كل مشرق ومغرب بالكلمة المحببة إلى المؤمنين : الجهاد ! الجهاد ! الجهاد !

والله معكم ولن يتِرَكم أعمالكم .

وقد اجتمعت اللجنة الفرعية للتبرعات يوم ٢٣ المحرم سنة ١٣٦٧ هـ . (٦ ديسمبر سنة ١٩٤٧م) ، ورأت أن تطوف على الكليات والمعاهد لجمع التبرعات الناجزة من المدرسين والموظفين ، وإيفاد مندوب عنها الى معاهد الأقاليم لجمع تلك التبرعات . كما حددت بجلستها فى يوم ٢٥ المحرم سنة ١٣٦٧ (٨ ديسمبر سنة ١٩٤٧) ألا يقل ما يتبرع به عضو جماعة كبار العلماء عن ١٥ جنيها . ومن فى الدرجة الثالثة عن ١٠ جنيهات ، ومن فى الدرجة الرابعة عن ٥ جنيهات ، ومن فى الدرجة الخامسة عن ٣ جنيهات ، ومن هو فى درجة دون ذلك عن ٢ جنيه . وقد جمع من تلك التبرعات لغاية يوم ٧ صفر سنة ١٣٦٧ (١٩٤٧/١٢/١٧) ٥٣١ مليم ١٥٥٠ جنيها .

أسباب تأخر المسلمين فى العصور الاخيرة
وعلاج هذا الموقف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
المدرس بكلية اللغة العربية

تصدير

هـذا الموضوع كان يلجلج فى نفسى من زمن بعيد ، وكان يضيق به صدرى ولا ينطلق لسانى ، وكنت فى شبه يأس من فائدة الكتابة فى هذا الشأن وأمثاله مما يتعلق بتشخيص الداء ووصف الدواء ، لاستئصال الأمراض النفسية ، التى كادت تفتك بالمجتمع الإسلامى من جميع نواحيه !

أما الآن فقد ظهرت لى بارقة أمل فى ثمرة بث الإصلاح الإسلامى ونشره بالصحف والمجتمعات : ويرجع الفضل فى ظهور هذه البارقة من الأمل الى صاحب النفس الزكية ، والشيمة المرضية ، والهمة العالية : مولانا صاحب الجلالة « فاروق الأول » ملك وادى النيل المحبوب !

فهو الذى قوّى النهضة الدينية ، وأحيا مواتها ، وجدّد شبابها ، وحاطها من عنايته بأوفر حظ وأكبر نصيب . ذلك لأنه — حفظه الله — علم بثاقب فكره ونافذ بصيرته أن فى تقويتها سعادة الدنيا والآخرة . ثم سار الشباب الاسلامى فى ركبه الميمون ، يؤم نوادى الفضيلة ، ويقوم فى وجه الرذيلة ، مترسما طريق مليكه فى الهَدْى والإصلاح . وقديما قيل : « الناس على دين ملوكهم » . فهذه جماعات الشبان المسلمين ، والإخوان المسلمين ، وشباب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتغلغل فى صفوف تلك الجماعات رجالات الأزهر من طلاب وعلماء ، ويؤازر هؤلاء وهؤلاء علماء الوعظ والإرشاد ، الذين نصبوا أنفسهم لإرشاد الأمة الى الطريق المستقيم بالقول النافع والموعظة الحسنة . هذا الذى أثار اهتمامى بهذا الموضوع الخطير ، وقوّى عزيمتى على طرْق بابه ، فأقول وبالله التوفيق :

ليس عند المنصفين من شك فى أن المسلمين أصبحوا مستضعفين مغلوبين على أمرهم فى مشارق الأرض ومغاربها !

وأنهم تفرقوا شيعا وأحزابا « كل حزب بما لديهم فرحون » .

وأن خاصتهم وبعض عامتهم تحللوا من تعاليم الإسلام ، وجعلوها قيودا رجعية ، رجعت بهم القهقرى : بينما تقدم غيرهم ممن لم يأخذوا بهذه التعاليم ، كشعوب أوروبا وأمريكا وبعض شعوب الشرق الأقصى (اليابان) . ولا ريب فى أن هذا التحلل يعد تأخرا فى الدين !

وأن الغالبية العظمى من المسلمين تأخرت فى ميدان السباق العلمى الى كشف وسائل الراحة ، ووسائل الدفاع عن النفس ، على حين تم السبق لغيرهم فى هذا الميدان !

لا شك فى أن هذا كله قد حدث ، بل حدث ما هو أعظم من هذا كله : وهو زعزعة عقائد الدين فى نفوس بعض المسلمين الذين فتنوا بعلوم « أوروبا » ومخترعاتها ، ولا سيما بعض من تخصص منهم فى أوروبا علميا . أو نزح إليها للتروض أو للاستشفاء !

أقول هذا ، والأسى يملأ فؤادى ، والحزن يقطع نياط قلبى ، والحسرة تملك علىّ كل جوانحى : أسفاً على ما وصلت إليه حال المسلمين ، سواء فى هذا أمور الدنيا أو أمور الدين ! !

وإنى أتساءل : هل يرجع ذلك إلى طبيعة الإسلام ، أو إلى طبيعة المسلمين أنفسهم ، أو إلى شىء آخر غير ما ذكرنا ؟ ذلك ما أريد أن أبينه تحت هذا العنوان ، ثم أصف بعد ذلك العلاج الناجع والدواء الشافى . عسى أن نتخلص من هذه الأوصاب الصعاب ، وما ذلك على الله بعزيز !

التأخر لا يصح أن يعزى إلى طبيعة الإسلام :

ذلك أن الإسلام دين الحضارة والمدنية الصحيحة « وابْتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ، ولا تنس نصيبَك من الدنيا ، وأحسنْ كما أحسنَ الله إليك ، ولا تبْغِ الفسادَ فى الأرض ؛ إن الله لا يحب المفسدين » (١)

(١) الآية ٧٧ من سورة القصص .

دين العزة والكرامة ، والعمل لسعادتى الحياة الدنيا والآخرة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكنّ المنافقين لا يعلمون » (١) . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (٢) .

دين العقيدة السليمة والإيمان القوى الموحّد « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعملْ عملا صالحا ولا يشركْ بعبادة ربه أحدا » (٣) . « قل يأهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ، ولانشركَ به شيئا ، ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون » (٤) .

دين المثل الأعلى للاجتماع البشرى ، والأخوّة الإنسانية « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » (٥) .

ولقد عاش الرسول صلى الله عليه وسلم منفقا عمره النفيس فى تبليغ هذا الدين الحق ، بين كرّ وفرّ ، وغزوات وسرايا ، ورسل وكتب إلى الملوك والقياصرة ، حتى حقق الله جل شأنه قوله فى كتابه العزيز « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (٦) . « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون » (٧) .

ثم جاء بعده الخليفة الأول « أبو بكر الصديق » فتمّم البناء الذى شيده الرسول الأعظم ، وانصرفت كل همته إلى تأسيس هذا البناء وتدعيم أركانه ، وكانت شئون الحضارة وقتئذ ثانوية بالنسبة إلى تبليغ الدعوة الإسلامية .

ولما استتبّ الأمر فى عهد الخليفة الثانى « عمر بن الخطاب » شرع رضى الله عنه يسلك سبيل الحضارة الدنيوية ، فنظم ديوان الجند ، ووضع أساس البريد ،

---

(١) الآية ٨ من سورة المنافقون (٢) ١٠٥ من التوبة (٣) ١١١ من الكهف
(٤) ٦٤ من آل عمران (٥) ١٣ من الحجرات (٦) ٣٣ من التوبة
(٧) ٨ من الصف

واستجلب المنجنيق من بلاد الفرس واستعمله فى الحرب ، إلى غير هذه الاصلاحات التى حالت منيته العاجلة دون تحقيقها ، والتى هى من الإسلام فى اللباب والصميم !

ثم تتابع الخلفاء من الأمويين والعباسيين يقتفون أثر عمر ، ويتغلغلون فى حضارة الفرس والروم ، فترجموا الكتب ، وضربوا بسهم فى علوم الكون ، كالكيمياء والطبيعة والفلك ، حتى كان عصر الأندلس الأموى الإسلامى ، فازدهرت المعارف الإسلامية ، وترعرعت العلوم فى حضانة الإسلام ، بين دينية ، وأدبية ، ولغوية ، وصناعية ، وزراعية ، وهندسية ، وكيماوية : وهى حضارة العرب فى الأندلس .

تلك الحضارة التى تسربت الى فرنسا ، ثم الى ألمانيا ، ثم الى انجلترا ، ثم الى سائر ممالك أوروبا .

تلك الحضارة التى كان من آثارها أن جعلت أوروبا بلاد الشرق كلها أسواقا تباع فيها منتجاتها المنوعة ، التى يتوقف عليها رقى العمران وتقدم الشعوب ، والتى جابت معها سموم الأخلاق والعقائد الدينية والوطنية ، فتسممت بها البيئات الشرقية ، وسرت تلك السموم فى النفوس ، وبخاصة المتعطشة منها الى الرقى ، وساعد على سرعة سريانها نفثات المستشرقين من دعاة الاستعمار وأبواق المدنية الكاذبة : فزعموا ـ والزعم مطية الكذب ـ أن الإسلام دين التوحش ، لأنه يقطع يد السارق : ودين الهمجية ، لأنه يبيح بيع الرقيق : ودين التأخر والجمود ، لأنه لا يدعو الى الكشف والاختراع : ودين يضاد الاجتماع ، لأنه يبيح تعدد الزوجات ، الى غير ذلك من الترهات التى زعموها مبادىء للإسلام . والله يشهد أن الإسلام من مزاعمهم براء ؛ لأن تلك الأحكام شرعت لحكم وأسرار إلهية ، لا تدرك إلا بالتأمل الدقيق والتفكر العميق .

وزادوا على ما ذكر أن نفثوا فى روع الناس ممن لم يتمكنوا من تعاليم دينهم أن السبب الوحيد فى تأخرهم فى الحضارة هو تمسكهم بالإسلام ، مستدلين على ذلك بتقدم أوروبا المسيحية ، وتأخر الشرق العربى الإسلامى ! !

يقولون هذا وأكثر من هذا بملء أفواههم ، ويتعقون به فى مجتمعاتهم ونواديهم ومدارسهم ، وينسون أو يتناسون أن الاسلام هو الذى فتح عيون

أوروبا لمبادىء هذه الحضارة ، وأن علماء القوانين الوضعية والاجتماعية الحديثة فى أوروبا أخذوا من الاسلام لبابه ، واستخلصوا منه مقومات الحضارة وانتحلوها لأنفسهم ، وأخذوا يمنّون على الشرق بها ؛ ومادروا أنها بضاعتنا ردت إلينا ، ولكنها ردت إلينا ناقصة مشوهة ، لا تناسب الحياة الشرقية فى شىء ، كما شهد بذلك علماء القانون من الشرقيين !

الخلاصة ـ أن تأخر المسلمين فى مضمار الحضارة لا يرجع إلى طبيعة الدين الإسلامى لما ذكرناه .

فهل يرجع هذا الى طبيعة المسلمين أنفسهم ؟

الجواب بالسلب المؤكد : لأن طبيعة المسلمين فى العصور الأخيرة هى طبيعتهم بذاتها أيام بسطوا ظلهم على رقعة كبيرة من أديم الكرة الأرضية ، تمتد من أواسط آسيا شرقا إلى ساحل المحيط الأطلنطى غربا ، ومن ساحل المحيط الهندى جنوبا إلى تخوم الروسيا والنمسا وإيطاليا وفرنسا شمالا (أنظر مصوّر الممالك الإسلامية) .

وقد نشروا فى هذه الأصقاع راية العدل ، وأزالوا عن أهلها كابوس الظلم ، وفتحوا لهم باب السعادة والحرية على مصراعيه ، وعاملوهم بما شرعه الإسلام من المساواة بين بنى الانسان : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ! .

وقد نعم الناس إذ ذاك بحياة سعيدة وعيش رغيد لم يعرفوهما من قبل ، ولذا دخلوا فى الاسلام أفواجاً ، واعتنقه الملايين فى الشرق والغرب ، رغبة فى مبادئه السامية ، وتعاليمه الراقية ، وعقائده الحقة . ثم سار جمعهم الضخم الفخم فى طريق المدنية الصحيحة على قدر طاقتهم البشرية من العلم والمعرفة ، ورائدهم المصلحة العامة ، والعلم النافع ، والعدل الشامل . حتى عزّبهم الإسلام ، فكانت له الهيبة فى نفوس الجميع ! .

إذن ليس تأخر المسلمين الآن فى ميدان الحضارة من طبيعة أنفسهم وكيان ذاتهم ، ولا من طبيعة الإسلام كما سبق بيانه . بل هو ناشئ من عوامل خارجية وأسباب طارئة ، أحاطت بهم منذ منتصف عصر الخلفاء العباسيين إلى وقتنا هذا . وسأبين هذه الأسباب فى مقال تال ، إن شاء الله تعالى ؟ .

علوم القرآن

علم المنطوق والمفهوم

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن حسين
المدرس بالأزهر

أبحاث ودراسات فى « مفهوم المخالفة »

ذكرنا فيما تقدم أن الأئمة الثلاثة : مالكا ، والشافعى ، وأحمد ، يرون أن مفهوم المخالفة معتبر شرعا فى إثبات الأحكام ، على معنى أن يثبت به نقيض حكم المنطوق : وذكرنا أدلتهم من القرآن الكريم ، ومناقشة الأحناف لهذه الأدلة : وبيّنا أن مفهوم المخالفة على رأى الأئمة يكون من علوم القرآن ما دام صالحاً لأن يكون أداة من أدوات الاجتهاد وإثبات الأحكام ، شأنه فى ذلك شأن مفهوم الموافقة ، والمنطوق بقسميه : صريح وغير صريح . أما السادة الأحناف الذين لا يرون أن مفهوم المخالفة تثبت به الأحكام ، فالظاهر عندهم أنه لا يعتبر من علوم القرآن ، لأن الأبحاث التى تدور حوله عندهم سلبية . منصبة كلها على نفى أن يكون من أدوات الاجتهاد والتشريع ، ومعلوم أن العلوم ـ سواء كانت ملكات أو إدراكات أو قواعد ـ أمور إيجابية . اللهم إلا إذا لحظنا أن إدراك السلب فرع إدراك الثبوت . وأن معرفة الشىء منفيا فرع معرفته ثابتاً . وعلى كل حال فهى علاقة بسيطة ، كما ترى ، لا تصلح أساساً لبيانه . كعلم من العلوم .

وقد كان ينبغى لنا ألا نتعرض لمذهب الأحناف وأدلتهم ، حيث إن مذهبهم لا يساعدنا على بيان مفهوم المخالفة من ناحية أنه علم من العلوم (وهو بحثنا) ، غير أنهم لما تعرضوا لأدلة الإثبات بالمناقشة ، وتناولوها بالبحث والدرس ،

رأينا أن نعرض أدلتهم . لنرى مبلغ قوتها ، ومبلغ ما جادلهم به الأئمة من ناحية ، ولأنهم أحد طرفى النزاع من ناحية أخرى . وقبل أن أذكر ذلك ، أرى لزاما أن أتعرض هنا لمسألة من أهم المسائل خطورة فى هذا المقام ، لأنها تمس مذهب الأئمة فى الصميم . ولأنها كانت مزلقاً من المزالق التى انحدر فيها كثير من الناس ، بل ومن أولى العلم الذين ينتسبون للعلم ظاهراً ، واتبعوا فيها أهواءهم بغير علم ، فضلوا وأضلوا : تلك المسألة الخطيرة هى مسألة « القيود » التى تنصب عليها الأحكام الواردة فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ مثل قوله تعالى : « وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن » ، وقوله تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها » ؛ ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل » . وغير ذلك من القيود التى وردت فى آيات وأحاديث الأحكام ، وأهمها وأخطرها القيود الواردة فى آيات تحريم الربا « يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » : فقد ذهبوا فيها مذاهب ، وفسروا هذه القيود الكريمة تفسيرات ، واتجهوا فى مفهومها المخالف اتجاهات . يعلم الله والراسخون فى العلم مقدار مافيها من بطلان وزيغ

يأيها الناس ويا أشباه العلماء ! أتتصورون أن الأئمة رضوان الله عليهم الذين يرون العمل بمفهوم المخالفة لم يخطر ببالهم ما خطر ببالكم ، ولم يصل علمهم وإدراكهم إلى مثل ما وصل إليه علمكم وإدراككم ؟ كيف وهم الأئمة المجتهدون ، أصحاب المقامات العالية فى الأصول والفروع ، وأصحاب هذا الشأن وفرسان الميدان ؟! هل تظنون أن الأئمة حينما قرروا أن بعض القيود (خرّج مخرج الغالب) رموا بهذا القرار جزافا ، ومن غير روية وتفكير ، ومن غير قاعدة أصولية مطردة ، مستندة إلى أوثق المصادر ، متمشية مع روح القرآن والسنة ؟ .

الله الذى جعلهم أئمة الهدى يعلم أنهم على حق ، وإنهم لصادقون ، والله يشهد إنكم فيما ذهبتم إليه من تحليل ماحرم الله ، وتحريم ما أحل ، لكاذبون !

ولعلك أيها القارىء الكريم تتصور أن فى هذه المسألة شيئاً من الغموض والإبهام ، فسأوضحها لك بكل جلاء .

إن هؤلاء الناس يقولون : إن الأئمة الثلاثة قرروا أن مفهوم المخالفة تثبت به الأحكام ، والمراد بالأحكام الأحكام المناقضة لأحكام المنطوق ؛ والمراد بثبوتها العمل بها فى محال السكوت ؛ وعلى ذلك فقوله تعالى «وربائبكم اللاتى فى حجوركم» أثبتت بمنطوقها الصريح تحريم نكاح الربيبة بقيد أن تكون فى حجر الزوج وكنفه وتحت رعايته ، لأن قوله « وربائبكم » معطوف على قوله «أمهاتكم» الواقع نائب فاعل لقوله « حرمت » فيكون النظم حرمت عليكم أمهاتكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم ؛ وأثبتت بمفهوم المخالفة — طبقا للقول بالعمل به — نقيض هذا الحكم فى محل السكوت ؛ فتكون الربيبة غير محرمة إذا لم تكن فى حجر الزوج .

وقالوا فى قوله تعالى « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها » إنها تدل بمنطوقها الصريح على أن الخلع جائز مع الشقاق ، وبمفهومها المخالف على عدم جوازه عند عدم الشقاق .

وقالوا فى قوله تعالى « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » إنها تدل بمنطوقها الصريح على تحريم قتل الأولاد عند خشية الفقر ، وبمفهومها المخالف على جواز ذلك عند عدم خشية الفقر . وهكذا قالوا فى آية الربا وغيرها ، واستمروا فى تطبيق قاعدة العمل بمفهوم المخالفة بدون استناد ولا علم بالقواعد التى قررها أصحاب القول بمفهوم المخالفة . مع أن الأئمة رضوان الله عليهم احتاطوا لهذا الأمر أشد الحيطة ، وحذروا من الأخذ بمفهوم المخالفة على إطلاقه أشد التحذير ، خشية أن يندفع بعض الناس وراء أهوائهم بغير علم . وما كان لهم إلا أن يحتاطوا وأن يحذروا فالأمر جد خطير . أرأيت معى مقدار ما لهذه المسألة من الخطورة ؟ لذلك سنفرد لها مقالا خاصا نشرح فيه قاعدة « الحيطة والتحذير » ونعرض لتفسير الآيات المتقدمة ، فأن هذا مما يمس بحثنا أشد المساس ، فضلا عن خطورته الدينية والاجتماعية .

ومما يتصل بهذا الموضوع اتصالا وثيقا ، وينهض كشبهة من شبه هذا الفريق ، أن الأساليب العربية وأقوال علماء اللغة متضافرة على أن الحكم إذا ورد على مقيد بقيد كان القيد هو المقصود بالحكم ؛ فإذا قلت : قدم الفارس مسرعا ، فأنت لا تريد أن تفيد المخاطب أن الفارس قدم ، وإنما تريد أن تخبره

بأنه قدم مسرعا ، وإلا لكان القيد عبثا ولغوا ، ولما كان هناك فرق بين أن تقول : قدم الفارس ، وقدم الفارس مسرعا . وكذلك إذا قلت : رأيت الأمير يصلى فى الأزهر ، فأنت لم ترد أن تخبر بأنك رأيت الأمير ؛ وإلا لكفاك أن تقول : رأيت الأمير ، وإنما أردت أن تخبر بأنك رأيته حال كونه يصلى فى الأزهر ، وإلا لا نعدم الفرق بين التعبيرين . وإذا تركنا هذا الأسلوب المعتاد جانبا واتجهنا نحو الأدب الرفيع والأساليب الراقية لوجدنا فيها الشيء الكثير .

انظر الى قول عنترة :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما ... والناذرين إذا لم ألقهما دمى

فهو لا يريد أن يخبر بأنه يخشى الموت ، وإنما أراد أن يخبر بأنه يخشى الموت قبل أن يقتل ابنى ضمضم ، وانظر إلى قول النابغة الجعدى فى قصيدته المشهورة التى مدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتابا كالمجرّة نيّرا
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها ... وكنت من النار المخوفة أحذرا

فهو لا يريد أن يخبر بأنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشرف بصحبته فحسب ، وإنما أراد أن يخبر بأنه جاء وقت أن جاء بالهدى والكتاب المنير ليقيم على التقوى الخ . وانظر إلى قوله فى نفس القصيدة :

ألم تريا أن الملامة نفعها ... قليل إذا ما الشيء ولى وأدبرا

فهو لا يريد أن يحمل المخاطبين على الاعتراف بأن نفع الملامة قليل — مطلقا — وإنما فى وقت أن يكون الشيء الذى أوجبها قد ولى وأدبر .

وانظر إلى قوله فيها :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

فهو لا يريد بالبداهة نفى الخير عن الحلم على إطلاقه ، ولكن إذا لم تكن له بوادر الخ . قالوا والقرآن الكريم جاء على أوضح منهج وأبلغ أسلوب ، وأنه تحدى بأسلوبه وإعجازه العرب أصحاب هذه الأساليب الرفيعة .

فلماذا لا يكون أسلوب القرآن فى آيات الأحكام على نمط أساليب العرب فى كلامهم وأحكامهم ؟ قلت :

أما أنه يكونُ أو لا يكون كذلك ، وأما أنكم فهمتم كلام الأئمة فى أصول فقههم أم لم تفهموه ، فموعدنا فى المسألتين المقال الآتى إن شاء الله ، والله الموفق ؟

الدنيـــــا

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من كانت الدنيا همه ، طال فى الآخرة غمه ؛ ومن خاف الوعيد ، لها عما يريد ؛ ومن خاف ما بين يديه ، ضاق ذرعا بما فى يده » .

نقول : المراد من تجرد للدنيا دون عمل للآخرة .

وقال أبو الحسين الوراق .

يا غافلا ترنو بعينى راقد ... ومشاهدا للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى ... درك الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما ... منها إلى الدنيا بذنب واحد !

وقال نابغة بنى شيبان :

إن من يركب الفواحش سرا ... حين يخلو بسره غير خال
كيف يخلو وعنده كاتباه ... شاهداه وربه ذو الجلال !

فتوى شرعية :

فى حكم تعاطى الدخان والاتجار فيه

من دار إفتاء الديار المصرية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسنين محمد مخلوف
مفتى الديار المصرية

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية فبعث إلينا بهذه الفتوى ، ونحن نبادر بنشرها لأن موضوعها يهم طائفة كبيرة من المسلمين ، فنرجو لفضيلته دوام الإفادة والتوفيق .

سأل موسى احمد المنسى قال :

نرجو الإفادة عن حكم الله فى تجارة الدخان . وعما يتبع ذلك من الكسب الناتج عن هذه التجارة ؛ حيث إن الحاجة ماسة جداً الى معرفة ذلك .

الجواب :

الحمد لله وحده . والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

اطلعنا على هذا السؤال المؤرخ فى الثانى من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٧ والمتضمن الاستفتاء عن حكم الشريعة الغراء فى تجارة الدخان والكسب الناتج منها : ونقول :

اعلم أن حكم تعاطى الدخان حكم اجتهادى . وقد اختلفت فيه آراء الفقهاء . والحق عندنا كما فى رد المحتار : أنه الإباحة ، وقد أفتى بحله من يعتمد عليه من أئمة المذاهب الأربعة . كما نقله العلامة الأجهورى المالكى فى رسالته . وقال

العلامة عبد الغنى النابلسى فى رسالته التى ألفها فى حله : إنه لم يقم دليل شرعى على حرمته أو كراهته ، ولم يثبت إسكاره أو تفتيره أو إضراره بعامة الشاربين حتى يكون حراما أو مكروها تحريما : فيدخل فى قاعدة : الأصل فى الأشياء الإباحة . بل قد ثبت خلاف ذلك . وفى الأشباه عند الكلام على قاعدة : الأصل فى الأشياء الإباحة أو التوقف : أن أثر ذلك يظهر فيما أشكل أمره ومنه الدخان . وفى رد المحتار أن فى إدخاله تحت هذه القاعدة إشارة الى عدم تسليم إسكاره وتفتيره وإضراره كما قيل ، والى أن حكمه دائر بين الإباحة والتوقف : والمختار الأول ، لأن الراجح عند جمهور الحنفية والشافعية كما فى التحرير ، أن الأصل الاباحة : إلا أنه كما قال العلامة الطحاوى يكره تعاطيه كراهة التحريم لعارض ، ككونه فى المسجد للنهى الوارد فى الثوم والبصل وهو ملحق بهما ، وكونه حال القراءة لما فيه من الاخلال بتعظيم كتاب الله تعالى اهـ موضحا . وأشار بالنهى المذكور الى ما فى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى غزوة خيبر: « من أكل من هذه الشجرة ـ يعنى الثوم ـ فلا يقربن مسجدنا ». وعن جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أكل ثوما أو بصلا فليعتزل مسجدنا وليقعد فى بيته » اهـ . والعلة فى النهى كراهة الرائحة وإيذاء المسلمين بها فى المساجد . ولا شك أن للدخان أيضا رائحة مستكرهة عند من لا يستعمله ، فيكره تعاطيه فى المسجد للعلة المذكورة ، كما يكره لأجلها غشيان المساجد لمن أكل الثوم والبصل ونحوهما من المأكولات ذات الرائحة الكريهة التى تبدو بالنفس والجشاء ما دامت فى المعدة . ويكره تعاطيه أثناء القراءة لكل من التالى والسامع لتحقيق العلة المذكورة فيهما . والكراهة لعارض لاتنافى حكم الاباحة فى عامة الأحوال . وقول العمادى بكراهة استعمال الدخان محمول كما ذكره أبو السعود على الكراهة التنزيهية . وقول الغزى الشافعى بحرمته قد ضعفه الشافعية أنفسهم ، ومذهبهم أنه مكروه كراهة تنزيه إلا لعارض : والكراهة التنزيهية تجامع الإباحة . ومن ذلك يعلم أن الاتجار فيه اتجار فى مباح على الراجح ، وأن الربح

تيارات الالحاد

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

لم يعرف فى تاريخ البشرية دين سماوى كتب له البقاء والتغلب على عوامل الهدم التى حاولت تقويض دعائمه، والإتيان على بنائه من القواعد، كما عرف عن الإسلام. فإن محمدا صلى الله عليه وسلم حين أعلن كلمته، وحمل رسالته، ودوّى صوته بها فى أنحاء الجزيرة، كان ذلك منه بمثابة الصاعقة على قريش، وبدا منها ما بدا من كل دعوى لا تدل فى الحقيقة إلا على الحسد والبغضاء على أن يكون هذا الأمر ليتيم فقير، وكان أجدر به أن ينزل وحيه «على رجل من القريتين عظيم». والمتتبع لمعارضتهم له، وخروجهم عليه، وتكتلهم لمناوءته، يستطيع أن يرجع هذه الحرب التى أثاروا غبارها، وأطاروا شررها، إلى هذا المعنى وكفى. أما التكذيب ودعوى أن القرآن أساطير الأولين، أو له شبه بالشعر والسحر وما شاكل ذلك من مهاترات المغلوب على أمره، فأحاديث إذا خلوا إلى أنفسهم لا يعترفون بها، ولا يذعنون لها. ولم يكن من المعقول أن يتلقى كفار مكة هذا الحدث الجديد بالقبول والارتياح، لأنه يقضى على المطامع والشهوات، وينعى على الفوارق بين الأفراد، ويندد باستبداد الرؤساء وظلم الحكام، ويجعل بنى آدم كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى. ولا شك أن أحبار اليهود، ورهبان النصارى، ومن إلى هؤلاء وهؤلاء ممن يتكسبون بالأديان، ويرزقون باسم الكتب المنزلة لا تطيب نفوسهم بتلك القلاقل التى تضفى على كبريائهم الحجب، وتسدل على عنجهيتهم «ذيل مرط مرحل». وقد أسلم من هذه الحشرات من أسلم، وتزيوا بأزياء المؤمنين المخلصين لا للدين ولكن للكيد والهدم، وتفريق الصفوف وإضعاف القوى، وتشتيت الكلمة، وإشعال نار الفتنة، والأحاديث الموضوعة

والإسرائيليات المدسوسة فى كتب التفسير ، والجدل الصاخب فى عصور مختلفة للتافه اليسير من الأشياء ، كخلق القرآن ، وحقيقة الجن والملائكة ، والجلوس على العرش ، وأفعال العباد ، وغير هذا .

وهذا بعض آثار هذا « الطابور الخامس » فى الإسلام . وإذا كان الشر يأتى بالخير ـ فى بعض الأحايين ـ فان هذا كله كان شحذا للأذهان ، وإذكاء للقرائح ، وإنارة للبصائر « ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حىّ عن بينة » . وهو بالتالى يعلن لمن فى الأرض جميعا أن هذا الدين لا يؤخذ بالتقليد ، ولا ينتقل بالوراثة ، أو يرضى بالحيرة والاضطراب ، وأن دستور أهله الدرس والفهم أولاً ، ثم يكون بعد ذلك الإيمان والعمل الصالح . وفى يقينى أن تدين سواد غير قليل من شبابنا « تدينٌ جغرافى » يعتمد على التقليد والوراثة أكثر مما يعتمد على الفهم والنظر : لذلك نجد عدوى الإلحاد أسرع تفشيا فيهم ، وانحدارا إليهم . وربما تقبلوها بدعوى التجديد والمدنية .

والتجديد والمدنية ـــ فى مصر ـــ من السموم الفتاكة التى يجب مطاردتها والقضاء عليها : لأنها كالسلاح الذى يوضع فى يد الصبى رجاء أن يتلهى به ، فإذا هو يصيب مقاتله ، ويمزق مفاصله ، ويتركه بعد ذلك أشلاء متناثرة . ومن الأسف أن الجيل الحاضر ليس عنده من الحصانة أو المناعة ما يحول بينه وبين التردى فى هذه المهاوى ، والانزلاق فى تلك المنحدرات . وكلمة « حرية الفكر » من الكلمات التى روج لها فريق من المتأدبين بالحق والباطل ، دون أن يعدوا لها البيئة التى تناسبها من الثقافة والعلم ، وحملها من حملها من أنصاف الجهلاء أو أنصاف العلماء ، وملؤا بها الأندية والمحافل ، ثم ملؤا بها الكتب والمجلات والعقول والألباب. والمخجل المؤلم أن بيئاتنا العلمية قد صارت مرعى خصيباً لهذه الجراثيم ؛ إما لقلة المحصول الكافى من التعليم الدينى الذى يدرءون به عن أنفسهم هذه الشبهات ، أو لانعدامه كل الانعدام . وهو ما يندى له الجبين ، ويذوب من أجله القلب حسرات . وزاد ذلك وساعد عليه أن الأحداث والثورات التى أصبحت تمثل فصولها بين جدران هذه البيئات صرفت التلميذ والأستاذ عن إكمال النقص ،

ورأب الصدع ، وأصبح انتقال الطالب من مرحلة إلى مرحلة ، بمضى المدة لا أكثر ولا أقل . يضاف إلى هذا فتح الباب على مصراعيه للمبشرين الواغلين علينا باسم المدارس والمستشفيات ، فى حين أن لهم من ماضيهم بيننا ، وطول إقامتهم معنا ، ما يجعلنا نحكى فيهم قول الله تعالى : « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » .

والخصومة فى المبادئ ، والخلاف فى الآراء ، أحقر أساليب الإقناع فيها أن تقول « هذا حلال وهذا حرام » أو تحيل المعاند المنكر على آية محكمة . ولا أحسب أن ذلك يغض من شأن كتاب « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ، إنما هو الجرى على السنن الذى يجرى عليه الخصم ، واللجوء الى خطة لا ينكرها ، وسبيل يقول فيها « قل هذه سبيلى » . على أن من الحصافة أن تكون الحرب بمثل عدة العدو وسلاحه .

وكتب الغزوات والفتوح تحدثنا أن العرب لم يتعلموا المنطق فى الصيال والنزال إلا حين رأوا الفرس يتخذون منه هيلهم وهيلمانهم .

ونحن نرى دعوى العلم ، ودراسة الفلسفات الحديثة ، والنظريات الجديدة التى تعرض على بساط البحث فى أوربا ، تجرى على ألسنة أولئك الهدامين الملحدين . أفما كان من الحزم أن تقطع منا « جماعة » للاشتغال بذلك حتى لا نقف مكتوفين إذا قيل لنا « كيف وكيف » لعالم معاصر ، أو فيلسوف قديم ؟ ! وما أظن الآية « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » كانت ترمى الى الفقه الأكبر والأصغر فقط . على أن الوسيلة — كما يقولون — تشرف بشرف الغاية « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » ! .

التعريف بالعالم الإسلامي :

إمارة الكويت الاسلامية

لفضيلة الأستاذ أحمد الشرباصي المدرس بالأزهر

تمهيد :

لقد أجمعت الأمم العربية والإسلامية على الجهاد الصادق والكفاح الدائب ، حتى يتحقق لها غرضان جليلان ، فيهما تمام النصر وعز الدهر : وهما الحرية والاتحاد ؛ وإنما تتحقق الحرية بالقوة ، وإنما تتحقق القوة بالاتحاد : لأن الاجتماع عصمة وسداد ، والتفرق ذلة وضعف . ولن يكمل الاتحاد إلا إذا تعارفنا نحن الأمم العربية الإسلامية ، حكومات وشعوباً وأفراداً ، ولن نتعارف كما ينبغي إلا إذا درس كل عربي أجزاء وطنه الأكبر ، فلا يقتصر العربي منا على شئون وطنه الصغير الذي ولد فيه ؛ وهذا ما حدا بي إلى محاولة التعريف بما أستطيع من أقطار العروبة والإسلام ، وهأنذا أبدأ اليوم بإمارة الكويت .

ما هي الكويت ؟ :

الكويت إمارة عربية إسلامية ، تقع على ساحل الخليج الفارسي بين البصرة ونجد ، وتمتد على ساحل الخليج شرقاً وغرباً ، وهي واقعة على آكام قليلة الارتفاع ، وفي بطون أودية لها منظر بديع ، ولا سيما منظرها من جهة البحر ، وهي طيبة الهواء معتدلة المناخ ، ونسيمها لطيف في الشتاء والصيف ، وقلما تخلو ليالي صيفها من نسيم عليل يكسب الجسم نشاطاً ، ويسمى « الغربي » . وعاصمة الإمارة هي مدينة « الكويت » ، وتقع على خليج صغير يتفرع من الخليج الفارسي ، ويبلغ طولها نحو ثلاثة أميال ونصف ، ويبلغ عرضها نحو ميلين ، وهي ميناء طبيعي ، وينتشر حولها جملة من القرى ، ويبلغ تعدادها نحو مائة وخمسين ألفاً من السكان ، وكان بها قديماً نفر قليل من اليهود الدخلاء ،

ولكنهم لم يستطيعوا مزاحمة الوطنيين فى أعمالهم ، فنزحوا عن الكويت حتى لم يبق فيها يهودى واحد ؛ والله المسئول أن يتدارك فلسطين الشهيدة ، كبد الإسلام الطعين ، وجرح العروبة الدامى ، كما تدارك الكويت من قبل ، فيقضى على ذلك السرطان العالمى الخبيث الذى يسمى « اليهود » بالفرقة والشتات بعيداً عن أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومسرى الرسول ، وملتقى الأنبياء ، حتى يسلم الوطن العربى لأهله وذويه !.

وقد أنشئت إمارة الكويت منذ مائتى سنة تقريباً ، أنشأتها أسرة آل الصباح وهم ينتسبون إلى قبيلة « عنزة » من كبريات القبائل العربية ، وكانوا قديماً يقيمون بين أهليهم فى نجد ، ثم حدث بينهم وبين بنى عم لهم من بطن « جُميّلة » من عنزة قتال ونزاع أدى إلى خروج آل الصباح من وطنهم إلى موضع الكويت الحالى بعد عدة تنقلات ، فشيدوا تلك البلدة التى حسدهم عليها القريب والبعيد ، وكان ذلك فى سنة ١٠٨٣ هـ أو ١٠٢٥ أو ١٠٢٢ أو ١١٠٠ ، فهناك خلاف كثير فى تحديد ذلك . والتوفيق بين هذه التواريخ يسير ، فقد يكون البدء فى البناء حدث فى أسبقها ، ثم تابع إتمام أجزائها فى التواريخ الأخرى المتتالية !.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

معنى كلمة « كويت »

شيدوها وسموها « الكويت » فما معنى كلمة « كويت » هذه ؟ . إن أصل الكلمة ليس بعربى ، لأنها تصغير « كوت » . قالوا : وكوت هذه كلمة مشهورة معروفة فى العراق ونجد ، وما جاورهما من البلاد العربية ، وقد شاع استعمالها على الألسنة ، حتى إنهم صرفوها تصريف الكلمة العربية الأصلية ، فصغروها وجمعوها . فقالوا : كويت وأكوات : وبالمصغر سميت مدينة « الكويت » الواقعة على ضفاف البحر الفارسى أو خليج البصرة ، وهذه الكلمة قد توارثها العراقيون عن آبائهم البابليين والكلدانيين ، ووردت فى « سفر الملوك من التوراة » . وهى تطلق عندهم على البيت المربع المبنى كالحصن والقلعة وغيرهما مما يبنى لحاجة ، ويبنى حوله بيوت صغيرة حقيرة بالنسبة إليه ، ويكون ذلك البيت فرضة للسفن والبواخر ، ترسو عنده لتكمل منه ما ينقصها من الفحم والزاد وما أشبه ذلك من حاجات السفر . ولا تطلق هذه الكلمة إلا على ما يبنى قريبا من الماء ، سواء

أكان من ماء البحر أم من ماء النهر . وقد يطلق لفظ « الكويت » على النهر الصغير أيضا . وتسمى به الآن جملة من القرى فى العراق توسعا . ولعلها كانت فى أول أمرها أكواتا صغيرة ، ثم تقاطر الناس إليها وعمروها فاتسعت ، وبقيت على اسمها الأول[1] .

ثم يذكرون فى سبب تسمية الإمارة الكويتية بذلك الاسم أنها سميت باسم حصن صغير كان موجودا فيها ، بناه ابن عريعر زعيم بنى خالد ، وأقام فيه أحد عبيده ، واتخذه مستودعا للميرة والذخيرة ، فإذا أراد الغزو شمالا ، أو المرعى قريبا من ذلك الحصن ، تزود بما يريد منه ؛ فلما هبط آل الصباح فى هذه البقعة وهبه لهم . فكانوا أول من شاد فيها البيوت الحجرية ، وتولوا حكمها منذ تأسيسها إلى اليوم ! . .

مدينة الكويت :

وفى مدينة الكويت أحياء كثيرة ، منها حى « الوسط » ، وهو حى يقع فى وسط المدينة ، وفيه بيت الإمارة ، وقصور آل الصباح ، وفيه السوق والصفاة وهى أرض واسعة اتخذت مناخا للأعراب الذين ينزلون الكويت من أجل التجارة ، إذ يعرضون سلعهم وبضائعهم فى سوقها ، من إبل وغنم ، وصوف ودهن وجلود ، وفيها يكثر الزحام ويشتد ، حتى ليعسر التخلص للبصير بله الأعمى . وإلى هذا يشير شاعر الكويت الشيخ صقر بن سالم فيقول :

ما فى الصفاة لذى عمى مثلى أمور تحمد
كم مرة قد ضمنى فيها زحام أنكد
كادت به عن جثتى نفسى العزيزة تفقد !

وفى مدينة « الكويت » مساجد كثيرة ، تزيد على الخمسين مسجدا ، والظاهرة الجميلة فى أمر هذه المساجد أن أكثرها قد بناه الأفراد بأنفسهم ، دون معونة الحاكمين أو الرؤساء الرسميين ، ولذلك يسمى المسجد فى الغالب باسم بانيه ، ومن بين هذه المساجد مسجد يعقوب ؛ أسسه زعيم عائلة يعقوب ، ثم نالته أيدى الزمان بالهدم والتخريب ، فأصلحه الحاج حمد الخالد سنة

(١) انظر مادة « كوت » فى دائرة معارف القرن العشرين للعلامة وجدى بك .

١٣٤٢ هـ إصلاحا واسعا نقله عن حالته الأولى ، ولهذه المناسبة يقول الشيخ يوسف بن عيسى القناعي فى مدح آل خالد :

لو قيل من هم فى الكويت أولو المكارم ، والمحامد
الطيبون ، المحسنون على المدارس ، والمساجد
الراحمون الثابتون على المبادئ ، والمقاصد
لأجبتهم : هذى الخلال تجمعت فى آل خالد !

ويحيط بمدينة الكويت سور كبير مما يجعلها شبيهة بمدن القرون الوسطى ، وقد بنى ذلك السور أولا الشيخ عبد الله بن صباح الأول (المتوفى سنة ١٢٢٩ هـ) ثم جدد هذا السور فى رمضان سنة ١٣٣٨ فى عهد الأمير الشيخ سالم بن مبارك ، وهو من أسباب انتظام الأمن فى المدينة ، وإخضاعها لأوضاع السكينة والهدوء ! .

وفى الكويت بضعة جزر جميلة ، منها « الجزيرة الصغيرة » التى يتخذها بعض الكويتيين منتجعا لهم فى ليالى الصيف ، يتمتعون بهوائها الطلق وجوها البديع ، ويزورها كثير من الشعراء والأدباء ، ولهم حولها مساجلات أدبية لطيفة ، بعضهم يتعصب لها ، ويتغنى بها ، والبعض الآخر يعارض ويعاند ، فينسب إليها سيئات وهنات ، ورحم الله الشعراء وغفر لهم ، « ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » ؟ . ومن تلك المساجلات أن الأستاذ الشيخ عبد العزيز الرشيد مؤلف « تاريخ الكويت » كان قد أقام بها أياما مع فريق من زملائه وإخوانه فبعث الى أستاذه الفاضل المرحوم الشيخ عبد الله خلف ، بهذه الأبيات يمدح فيها تلك الجزيرة :

رحلنا الى أرض الجزيرة ، علنا ... نزيل هموماً بالفؤاد استقلت
فنلنا بحمد الله ما فيه أنسنا ... ولو نالنا فى ذاك بعض المشقة
فأعظم ما يدنى الى القلب أنسه ... مناظر يعزى حسنها للطبيعة
كمنظرنا للبحر ، والبحر هادئ ... ومنظره والموج يبدو كهضبة
وما فيه من سفن تمر كأنها ... طيور ببحر الجو تجرى بسرعة
ومنظرنا تلك الخضور وأهلها ... وقد حملوا الأسماك منها بجلة

فأجاب الأستاذ على ذلك بقوله :

على هاجرى الأوطان يبغون دونها ... وجـــل مناهم فى سباخ الجزيرة
مناظرها تعزى إلى ضـد وصفهـا ... فـــلا حَسَنٌ فيها لرب البصيرة
أعشاق سبخاها ، وحُلاّل ربعها ... بسوء منـــاخ فى أراض صغيرة
لئن طاب منها الليل ، فالويل فى الضحى ... إذا اتقدت رمضاؤهـا فى الظهيرة
أيدفع بالأخصاص حر شمـوسهـا ... ومن قصب بالٍ بناء الحظيرة ؟ !

وترى بعضهم يفضّل هذه الجزيرة على مصيف لبنـان : فاستمع إلى الشيخ عبد المحسن أبى بطين إذ يقول فيها من قصيدة له :

ياليتنى أحظى بهـا لو ساعـــة ... فأنال فيهـا الأنس والأفـراحا
فلهـا عدا حسن الهـواء فضيلة ... مرأى عجيـــب يذهب الأتراحا
ولهـــا على لبنـان فضل واضح ... فسلوا مـلوك الأرض والسياحا

ويلوح لى أنهـا العصبية الجميـلة المحبوبة للأوطان : ومن ذا الذى لا يعتقد أن وطنه خير البلاد وأجمل الأوطان ؟ . ورحم الله شوقى إذ يقول :

وطنى لو شغلت بالخـــلد عنه ... نازعتنى إليه فى الخـلد نفسى !

ومن مشكلات الكويت أن الماء العذب فيها قليل نادر ، ومـع ذلك تغلب أهلوها على تلك المشكلة ، فهم يجلبون المـاء من شط العرب بوساطة السـفن ، وبعضهم يستفيد من الأمطار ، ويخزنون ماءهـا لاستعمالهـا بعضا من الوقت ، وبذلك استطاعوا أن ينشئوا من إملرتهم روضة غنـاء خـلال صحـراء جرداء ، والكويت تجمع بين الحسنيين ؛ فهى بوقوعها على الخليج الفارسى تمتـاز بميزة الثغور والموانىء ، التى يتمتع فيها الناس بمناظر المياه وصيد الأسماك ، وركوب السفن والزوارق ، وغير ذلك من المتع التى تهيئها مجاورة البحار والأنهار : وهى فوق ذلك قطعة كريمة أصيلة من الجزيرة العربية التى عرفت فى تاريخهـا القديم والحديث بما يقدمها ويفضلها على غيرها ، فهناك مناظر الطبيعة ، وجلال الصحراء ، وروعة الفضاء ، وجلوة السماء ؛ ولذلك كانت الجزيرة منذ القدم مبعثا ومستراداً لأكرم الدعوات ، وأفضل الشرائع ، وأسمى الأخلاق ! !

نور الله على الجبال

Cameos: God's Light on the Mountains by: Mary Corelli.

مترجمة بقلم الأستاذ عمر طلعت زهران

بإدارة المعاهد الدينية

وقال الله : « ليكن النور ، فكان »

« نورٌ على نورٍ . يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ » .

ارتفعت السحب الواحدة إثر الأخرى ، وانقشعت حجب الضباب الكثيفة ببطء ، ومن ثم بدت للعيان الجبال الشامخة ، ومن ورائها السماء الأثيرية الباهتة الزرقة . وكان الثلج الدائم جاثما فى بياضه فوق قلل الجبال التى ترامت من الأفق البعيد . وظهر خيط من النور الذهبى ، بدا فأنار سفوحها تجاه الشرق ، وتحت هذا الخيط المترفق الدافىء أخـــذ الثلج يذوب ، بينما تفتحت زهور البنفسج عن أكمامها .

وبدا شبح رجلين يتقدمان تجاه النور المشرق فوق الجبل ، وكانا مجهدين من ارتقائهما الشاق لهذا الجبل الأشم ، وقد ظهر النور لأعينهما من بعيد ، فلما بلغاه وقفا فى دائرته سويا . كانا أخوين فى العمل والعقيدة ، ولكنهما إذ خطوا الى هذا المجد الذهبى ، تقطبت جبهتاهما غضبا وحسدا .

وقال أحدهما يحدث زميله : « ماذا وقوفك هنا ياهذا ؟ إن هذا النور لى » .

فرد عليه الآخر : « صه أيها الأحمق ! إنك كذاب أشر ! إن النور نورى » .

ثم زاد تقطيبهما واشتد غضبهما ، ونسيا إذ ذاك أخوتهما ، واشتبكا يتقاتلان ؛ يتقاتلان فى غضب أعمى جموح : يتقاتلان على هذا النور العجيب الذى لم يكن نور

أحدهما ؛ وتقاتلا حتى وجفت زهيرات البنفسج على بساط الخضرة ، وانثنت كأنما قد ماتت ، وقد غمرها سيل الدماء الذى أريق .

وفجأة سقط بينهما ظل : وكان اسم هذا الظل هو الموت . فانفلت كل منهما من قبضة الآخر وهو يرتجف ، ورفع يديه يغطى عينيه ، ثم ذهبا مسرعين ، وذهب الظل معهما . وشربت الأرض الرطبة الداكنة دماءهما . وتفتحت زهور البنفسج من جديد ؛ وظل نور الله يشرق فوق الجبال .

وتلاهما امرأتان دخلتا دائرة النور . كانتا ملكتين عظيمتين . تتوج رأسيهما تيجان الماس والزبرجد ، ويثقلهما حمل الذهب والجواهر ، وكانتا تجرجران مخلوقاً ضعيفاً متداعياً يبدو كالطفل وإن كان له جناحان . كان شيئاً يكاد يموت ، دائم البكاء ، عالى الصراخ ، يتعثر فى مشيته . وحين وصلت المرأتان الى النور وقفتا بغتة ثم تواجهتا :

وقالت إحداهما للأخرى : « دعى قبضتك عن الحب ، لأنا وقد وصلنا إلى النهاية : لأقسم بعبقرى جمالى فى هذا النور ، إن النور والحب لى ! »

فأجابتها الأخرى : « أيتها الخائنة التعسة ! أو تتحدثين عن الجمال أمامى ! ألستُ سيدة العالم ، الحب خادمى والنور ميراثى ؟ لا ، لا ، لا تجادلى ، فالنور والحب إنما هما لى ! » .

ثم سقط بينهما الظل ، فاصفرّت الملكتان المتنافستان وشفّتا ، ثم ذابتا كالأشباح الواهنة فى الظلمة الداكنة . وبقى الطفل المجنح وحيداً يبكى : وظل نور الله يشع برفق فوق الجبال .

وتقدم نحو الضوء عابر سبيل ، وحيداً ، عارى الرأس ، ورفع عينيه نحو السماء ثم سكن فنظر وابتسم . كانت ساقاه متعبتين ، وبدت يداه خشنتين من عمل قاس لا يؤتى ثمرة تعبه ، وعلى الرغم من صفرة وجهه ونحافته فقد كان جميلا .

ثم انفرجت شفتاه عن آهة عميقة .

وقال : « هذا هو النور ، لك الحمد يارب ! »

واقترب منه الحب المجنح الذى كان يبكى وحيدا وقبّل قدميه ، وسأله وهو يكفكف دمعه : « من أنت ؟ حدثنى بالله من أنت الذى أجهدت نفسك لتجد النور ثم لم تنبس شفتاك كلمة سوء ، بل سلام وثناء ؟ » .

فابتسم الغريب وأجاب :

« أنا أعرف بالوحيد المحقر . لا أملك فى العالم كله شيئا ، حتى ولا إقبال الناس على ودعاءهم لى . بحثت عن النور حتى وجدته ، ومن ثم فإنى أحمد معطى النور الذى أجاب سؤلى . إنى أحمل اسماً يكرهه الناس غالباً ، واسمى هو الصدق » .

ثم حل الظل مرة ثالثة ، ولكنه لم يكن حينئذ ظلا ، بل بهاء يسطع فى النور نفسه ، وارتوى الصدق المتعب من المجد الذهبى ، فاشتد ساعداه ، وكفكف الحب دمعه ، وجاء من بعيد صوت حلو ، كأنما هو تغريد الملائكة .

وانتشر نور الله فوق الجبال . . . .

ميرى كوريلى

Cameos. God's Light on the Mountains. Mary Corelli.

العقـــل

قال المغيرة بن شعبة لعمر بن الخطاب إذ عزله عن كتابة أبى موسى الأشعرى : أعن عجز عزلتنى أم عن خيانة ؟ فقال عمر : لا عن واحد منهما ، ولكنى كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك .

يقول : إن من عبقرية الحكم أن تكون لعمر بن الخطاب هذه الكياسة فى حكم أمته . فإن الأمور الاجتماعية إذا عولجت بشدة ، وسُرى عليها المنطق الدقيق ، فسدت وخرجت عن حدودها ككل الأشياء الإنسانية . ومن أحكم ما قرأناه فى هذا الموطن قول معاوية : « العقل مكيال ثلثه فطنة ، وثلثاه تغافل » . ومثله قول الشاعر :

ليس الغبى بسيد فى قومه ... لكن سيد قومه المتغابى

الشعر فى العهد الأيوبى

لفضيلة الأستاذ رياض هلال
المدرس بمعهد القاهرة

هذه حقبة من تاريخ أدبنا العربى ، ماتزال مطوية الصفحات ، لم تدرس بعد ، ولم يرسل عليها الكتّاب والدارسون ضياء من عنايتهم فيكشفوا ما أحاط بها من غموض وإبهام. وكأنى بهم لمّا يأنسوا بها ولم يشيموا بها خيرا ، فأشاحوا عنها بوجوههم واطرحوها وراءهم ظهريا . ولو أنهم أخذوا أنفسهم بالبحث ، وصبروا على عنت الدرس والفحص ، لجنَوْا من ذلك أطيب الثمرات ، وعثروا فى زوايا التاريخ المجفو على خير كثير كانوا عنه فى شغل . وسنحاول فى هذه الكلمات أن نرسم خطوطا واضحة المعالم بينة السمات عن الشعر فى العهد الأيوبى ، ومدى عناية الأيوبيين به ، وعرفانهم بحقوق أهله واحتفائهم به ، فنقول :

وجد الشعر فى هذا العهد من سلاطين الأيوبيين وأمرائهم ووزرائهم وعيون دولتهم عاضدا ومشجعا ، عرف له فضله ، وقدره حق قدره ، فقربوا الشعراء منهم ، وأدنوهم من مجالسهم ، وكان من ملوكهم من له أكثر من شاعر يسجلون محاسنه ويشيدون بآلائه ، كصلاح الدين الأيوبى : فقد كان العماد الأصبهانى ، والقاضى الفاضل ، وفتيان الشاغورى ، وابن الذروى ، وعرقلة الشامى ، وسعادة الأعمى الحمصى ، والبهاء السنجارى وغيرهم ، يحيطون به ، ويلهجون بمدحه . وعرف عن خلفاء صلاح الدين أنهم كان لهم شعراء لازموهم وعرفوا بهم : فاشتهر الأشرف موسى بكمال الدين بن النبيه وابن عنين ، وعرف الكامل بالراجح الحلى . والملك الصالح أيوب بالشاعرين جمال الدين بن مطروح والبهاء زهير . وهكذا كثر الشعراء فى عهد الأيوبيين فافتنوا فى ضروب الشعر وأتوا فيه بالأعاجيب حتى نفقت سوقه وعلا شأنه ، وما زال الشعر أثيرا عند الملوك وسلم المجد ورائدا الناس إلى محاسن الأعمال :

ولولا [illegible] بناة العلا من أين ترتقى المكارم

وإذا كان بنو أيوب قد بسطوا أيديهم للشعراء بالعطاء الجزل والنائل الغمر، فقلدهم هؤلاء من شعرهم مدحا تبلى الأيام ولا تزيدها إلا جدة ونصوعا؛ لقد وجد الشعراء ما يدفعهم إلى القول ويحثهم إلى القصيد، ولو لم يؤملوا عطاء أو يشيموا نائلا فى تلك المواقف المحمودة لملوك الأيوبيين من جهاد[1] الشرك والنفح عن الاسلام.

وتلك مفخرة جديرة أن تجد من الشاعر أريحية تهتز لها نفسه، فتأتى إليه المعانى أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا. كما كانت المناظر الطبيعية فى مصر والشام حافزاً من حوافز الشعر عند الشاعر، يسحل فيه إعجابه بمكان كانت له فيه صبابات مع لداته وأقرانه بين حفيف أشجار، وضواحك أزهار، وما أكثر المشاهد والمناظر فى مصر والشام.

قال العماد: لما قتل الصالح طلائع بن رزيك وانكشفت شمس الفضائل ورخص سوق الشعر، وانخفض علم العلم وضاق فضاء الفضل، لم تزل مصر بعده مبخوسة الحظ منحوسة الجد، إلى أن ملكها يوسفها الثانى، وجعلها معان المعانى، وأنشر رميمها وعطر نسيمها[2]

ولقد تناقل الرواة والمؤرخون أخباراً وروايات متوافرة تدل على مبلغ عناية الأيوبيين بالشعر وحفلهم بالشعراء، وإن كانوا من أصل كردى ليس له فى صناعة البيان العربى سابقة معروفة، ولا ماض يصلون به حاضرهم؛ ولعل السر فى ذلك أنهم رأوا فى الفاطميين قبلهم أمثالا من ذلك التكريم فتقيلوهم، ورأوا خلفاء العباسيين فى بغداد يعطفون على العلم والعلماء ويشجعون الشعراء ويقربونهم منهم، فأرادوا محاكاتهم فى ذلك، حتى تكون القاهرة مرتحلا ينتجعه الناس ويقصده طلاب الحاجات، وما يزال العلم والأدب فى كل مكان منارا يهتدى به السائرون، وشارة مجد تخفق فى ربوع الدول فتقرأ فيها آية العظمة وجلال الشأن: فلا يدع إذا رأينا من ملوك الأيوبيين ووزرائهم وأمرائهم مسامح يغدقون على العلماء والشعراء من عطاياهم ويغمرونهم بنوالهم حتى ينطق

---

(١) سنختص هذا الموضوع ببحث منفرد.

(٢) الروضتين ـ ١ ص ١٢٤.

الشاعر بالمديح الذى لا يبلى على مر الأيام وكر الدهور والأعوام : والأمثلة لذلك مستفيضة متكاثرة . يحدثنا عز الدين عبد السلام أنه صحب عمر بن محمد المعروف بابن الشحنة من الموصل إلى السلطان صلاح الدين . فمدح السلطان بقصيدة أولها :

على الحى من وادى الغضا إذ تفرقوا سلام مشوق قد براه التشوق

فلما بلغ إلى قوله :

وقالت لى الآمال إن كنت لاحقا بأبناء أيوب فأنت الموفق

قال له السلطان : لقد وفقت ! وأجازه بجائزة سنية [1] .

وكان عرقلة الشامى ممن لازموا صلاح الدين واختصوا به ، وكان قد وعده أنه إذا أخذ مصر يعطيه ألف دينار ، فلما أخذها كتب إليه عرقلة :

قل للصلاح معينى بعد إعسارى يا ألف مولاى أين الألف دينار
أخشى من الأسر إذ حاولت أرضكم وما تنى جنة الفردوس بالنار
فجد بها عاضديات موقرة من بعض ما خلف الطاغى أخو العار
حمرا كأسيافكم ، غرا كخيلكم ، عتقا ثقالا كأعدائى وأطمارى

فجهز له صلاح الدين ألفاً وأخذ له من إخوته مثلها ، فجاءه الموت فجأة فلم ينتفع بفجأة الغناء [2] ولعل من حرص الأيوبيين على أن يعرفوا بتشجيعهم للأدب وإثابتهم على الشعر ما رواه العماد قال :

لما وصل صلاح الدين إلى حمص ، خرج إلينا ابن الدهان عبد الله بن أسعد الشاعر ، فقدمته إليه وقلت : هذا الذى يقول فى قصيدته يمدح بها ابن رزّيك :

أأمدح الترك أبغى الفضل عندهم والشعر مازال عند الترك متروكا ؟

فأعطاه السلطان مائة دينار وقال : حتى لا تقول إنه متروك عند الترك . فامتدحه الشاعر بقصيدته العينية التى جاء فيها :

أعلمت بعدك وقفتى بالأجرع ورضا طلولك عن دموعى الهمّع
لا قلب لى فأعى الكلام فأننى أودعته بالأمس عند مودعى

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ٦١ (٢) شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٢٠ .

قل للبخيلة بالسلام تورعا كيف استبحت دمى ولم تتورع
هل تسمحين ببذل أيسر نائل أن أشتكى وجدى إليك وتسمعى
أو سائلى جسدى ترى أين العنا أو فاسألى إن شئت شاهد أدمعى

ذلك عرض موجز لموقف ملك واحد من ملوك الأيوبيين من الشعر والشعراء، يبين لنا مدى عطفه وتشجيعه للأدب والأدباء. ولو ذهبنا نعرض لمواقف من خلفوه من السلاطين لطال بنا الحديث وتشعب بنا القول، فلكل منهم مواقف مشهورة تناقلها الناس وتحدثوا بها. وحسبك أن تقرأ فى كتب التاريخ والطبقات والسير لترى مددا زاخراً من هذه الأمثال يدلك على مدى ما ذهبنا إليه فى حكمنا على ملوك هذا العهد. ذلك ولم تكن هذه العناية مقصورة على السلاطين كما قدمنا، بل كان الوزراء ينافسون فى ذلك أيضاً: فهذا صفى الدين عبد الله بن على بن شكر وزير الملك العادل وأصله من دميرة [1] كان عالماً فاضلا له عناية بالعلم والعلماء والأدب والأدباء، وله فى القاهرة مدرسة باسمه [2]. ولقد كان مثل هذا الصنيع خليقاً أن يأخذ بالشعر إلى معارج الرقى وسبيل التجويد، كما أنه حرى أن يخلق فى نفس الشاعر إقبالا على الشعر ورغبة ملحة فى معالجته واصطناعه، لأنه سوف لا يجزى على شعره الشعير كما يقول عرقلة:

يقولون لم أرخصت شعرك فى الورى فقلت لهم إذ مات أهل المكارم
أجازى على شعرى الشعير وإنه كثير إذا حصلته من بهائم [3]

ذلك ضرب من ضروب تشجيع الأيوبيين للشعر والشعراء، وهو الإثابة عليه بالعطاء والنوال. وهناك ضرب آخر أشد أثراً وأبعد غاية فى تشجيع الشعر والاحتفال به، وهو مشاركتهم لأربابه ومحترفيه فى مدارسته والعكوف عليه وتذوقه وقرضه ونقده. وموعدنا فى الحديث عن ذلك عدد تال ؟.

---

(١) إحدى قرى الوجه البحرى.
(٢) النجوم الزاهرة ـ ٦ ص ٢٨٠.
(٣) شذرات الذهب.

السيدة نفيسة رضى الله عنها

لحضرة الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله
مدرس بمعهد فؤاد الأول بأسيوط

اطلعت على مقال تحت هذا العنوان فى مجلة (الاثنين) ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٧ زعم كاتبه أن زوجة مراد بك المتوفاة عام ١٨١٦ هى السيدة نفيسة صاحبة الضريح المشهور فى القاهرة . فرأيت أن أنشر ترجمة مختصرة للسيدة نفيسة رضى الله عنها ، حتى لا يلتبس الأمر على أحد ، وقد استقيت ما كتبته من أوثق المصادر التاريخية المعروفة لدى الباحثين ، فأقول :

سيرتها : هى السيدة نفيسة بنت الأمير الحسن الأنور ابن الأمير زيد ابن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين . ولدت بمكة سنة ١٤٥ هـ ، ونشأت بالمدينة حتى تزوجها إسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم ؛ وكان ذلك سنة ١٦١ هـ . ثم نزح بها زوجها إلى مصر لاضطهاد العباسيين لأهل البيت ، فاستقبلها المصريون استقبالا حافلا من العريش إلى القاهرة ، حيث نزلت بدار جمال الدين عبد الله من أكبر التجار فى ذلك الوقت ، فأقامت عنده شهوراً كانت خلالها كعبة للزوار من كل حدب وصوب . ولم تك هذه بالحياة التى تريدها ، فعزمت على العودة إلى الحجاز ، وبلغ ذلك الأمير السرى بن الحكم ، فزارها وسألها العدول عن عزمها ، فقالت : « إنى امرأة ضعيفة وقد شغلونى عن جمع زادى لمعادى ، ومكانى قد ضاق بهذا الجمع الكثيف » . فدبر لها حاكم مصر مخرجاً من أمرها حتى تعدل عن السفر ، فأجابها قائلا « إن لى داراً واسعة بدرب السباع ، فأشهد الله أنى قد وهبتها لك ، وأسألك أن تقبليها منى ، وأما الجموع فقررى معهم أن يكون

ذلك يومين فى الجمعة وباقى أيامك فى خدمة مولاك » . فانتقلت الى هذه الدار ولبثت بها حتى وفاتها ، وخصصت للوفود يومى السبت والأربعاء .

علمها وعبادتها : كانت رضى الله عنها تحب العبادة من صغرها ، وكانت لاتفارق حرم النبي صلى الله عليه وسلم خلال إقامتها فى المدينة ، وحجت ثلاثين حجة أكثرها ماشية ، وكانت عند ما تطوف بالبيت الحرام تتعلق بأستار الكعبة ، وتتضرع إلى الله قائلة « إلهى وسيدى ومولاى امتعنى وفرحنى برضاك عنى ، فلا تسبب لى سبباً به عنك تحجبنى » . قالت زينب بنت يحيى المنوج (وهى بنت أخيها) « خدمت عمتى[1] أربعين سنة فما رأيتها نامت الليل ولا أفطرت بنهار » . وكانت لها درجة عالية فى العلم ، فكانت تحفظ الحديث الشريف وترويه ، وتحفظ القرآن الكريم وتفسيره ، وكانت بحراً زاخراً فى الكرم . قال ابن كثير : « وكانت ذات مال فأحسنت إلى الناس والجذامى والزمنى والمرضى وعموم الناس ، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير ، ولما ورد الشافعى مصر[2] أحسنت إليه » . وكفى دليلا على غزارة علمها ورسوخ قدمها فيه أن الامام الشافعى رضى الله عنه سمع عليها علم الحديث ، وكان أحيانا يصلى بها فى شهر رمضان ، وحين مات أمرت بجنازته فأدخلت إليها فصلت عليه فى دارها ، وهو موضع مشهدها اليوم . قال ابن الأهدل : « إن سلسلتها فى النسب وسماع الشافعى منها وعليها ، وحمله ميتا الى بيتها ، أعظم منقبة : فلم يكن ذلك إلا عن قبول ، وإقبال ، وصيت وإجلال ، نفع[3] الله بها » .

وفاتها : قال القضاعى[4] « حفرت السيدة نفيسة قبرها فى بيتها ، وكانت تنزل فيه وتصلى كثيرا ، وقرأت فيه مائة وتسعين ختمة » .

وابتدأ بها المرض فى شهر رجب سنة ٢٠٨ هـ واشتد بها ، حتى عجزت عن القيام لضعفها ، فكانت تصلى قاعدة ، ولا تفتر عن القراءة والتسبيح ، ولما دخل

---

(١) الكواكب السيارة ص٣١ (٢) البداية والنهاية جـ ١٠ ص٢٦٢ (٣) شذرات الذهب لابن العماد جـ ٢ ص ٢١ (٤) الكواكب السيارة ص ٣٣

شهر رمضان كانوا ينصحونها بالإفطار ، فكانت ترفض ، إذ كانت أمنيتها أن تلقى الله صائمة فكيف تفطر عند لقائه ! وفى أول جمعة من رمضان وفى هدأة الليل كانت تتلو سورة الأنعام وبجوارها بنت أخيها زينب ، فلما وصلت إلى قوله تعالى : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » غشى عليها فضمتها بنت أخيها إليها ، ولكن الأجل كان انتهى ، فشهدت شهادة الحق وفاضت روحها رضى الله عنها ، ودفنت فى المنزل الذى كانت تسكنه ، وهو بمكان يعرف قديما بدرب السباع بين مصر والقاهرة ، وكان يوم وفاتها يوما مشهودا ، وقد توافد الناس إليها من البلاد فصلوا عليها بعد دفنها . قال ابن خلكان « فخرب الدرب ، ولم يبق هناك سوى المشهد ، وقبرها معروف بإجابة الدعاء عنده ، وهو مجرب [1] رضى الله عنها » .

شهرتها : يقول ابن شاكر الكتبى : « وكان للمصريين فيها اعتقاد عظيم ، وهو إلى الآن [2] باق كما كان » . ويقول الأمير أبو المحاسن ابن تغرى بردى : « وهى صاحبة الكرامات والبرهان ، وقد شاع ذكرها [3] شرقا وغربا ، وكان يتردد لزيارة ضريحها بعد وفاتها جمع من كبار الأئمة المعاصرين ؛ مثل الإمام عبد الرحمن البويطى ، والإمام الربيع بن سليمان المرادى ، والإمام الربيع الجيزى ، والإمام حرملة بن يحيى ، وهؤلاء من أصحاب الامام الشافعى ، رضى الله عنهم أجمعين .

ومنهم الشيخ الكبير يونس بن عبد الأعلى الصدفى ، والإمام سحنون المالكى ، وذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ ، وغيرهم ممن لا يدخل تحت حصر ، سواء من العلماء أو المؤرخين والأمراء والملوك ، أكف عن ذكرهم خشية الإطالة .

المؤرخون : ترجم لها كثير من عيون المؤرخين . وأثبتُ هنا بعضهم مبينا سنة وفاته ، واسم مؤلفه ، ورقم الجزء والصفحة التى ذكرت فيها الترجمة :

---

(١) وفيات الأعيان ـ ٣ ص ٨٦ ـ ٨٧

(٢) فوات الوفيات ـ ٢ ـ ٣٨٦

(٣) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ ٢ ـ ١٨٥

قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (وفيات الأعيان) حـ ٣ — صـ ٨٦

محمد بن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (فوات الوفيات) حـ ٢ - صـ ٣٨٦

الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ (البداية والنهاية) حـ ١٠ — صـ ٢٦٢

شمس الدين محمد بن الزيات (القرن التاسع) الهجرى (الكواكب السيارة) صـ ٣١ ، صـ ٣٣ وغيرها .

أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (النجوم الزاهرة) حـ ٢ صـ ١٨٥

الإمام السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (حسن المحاضرة) صـ ٢٩٢ - ٢٩٣

الإمام عبد الوهاب الشعرانى المتوفى ٩٧٣ هـ (الطبقات الكبرى) حـ ١ صـ ٥٨

ابن العماد المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ (شذرات الذهب) حـ ٢ صـ ٢١

هؤلاء اطلعت على ما كتبوه عنها، وكتب فى هذا الموضوع جم غفير غيرهم أكتفى بالإشارة إليهم لمن يريد البحث؛ مثل الكندى (فضائل مصر) ، موفق الدين بن عثمان ، أبو إسحق إبراهيم بن بللوه النسابة ، السيد الشريف محمد أسعد بن على الحسينى ، القضاعى ، ابن عبد الحكم (فتوح مصر) ، ابن زولاق ، ابن الأهدل ، الحافظ الذهبى ، مجد الدين بن عين الفضلاء التاسع (مصباح الدياجى) ، الحافظ ابن حجر ، السخاوى (تحفة الأحباب) وأفردها بالترجمة ابن النحوى فى كتابه (الدرة النفسية) .

تاريخ عمارة مسجدها رضى الله عنها :

أول من بنى مشهدها الطاهر عبيد الله[1] بن السرى بن عبد الحكم أمير مصر ؛

---

(١) كان أميرا على مصر من سنة ٢٠٦ هـ إلى سنة ٢١٢ هـ .

وجدد القبة التى على الضريح المبارك الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله عام ٥٣٢ هـ وتحتفظ دار الآثار العربية بأثر من المشهد النفيس يرجع إلى العصر الفاطمى [١] : وبنى المسجد السلطان الناصر [٢] محمد بن قلاوون سنة ٧١٤ هـ ; وجدد المشهد الأمير عبد الرحمن كتخدا [٣] سنه ١١٧٣ هـ وكذا المسجد ، وبنى الصهريج على هذه الهيئة الموجودة ، وجعل لزيارة النساء طريقاً بخلاف طريق الرجال . كل هذا حدث ، أى العمارة الأخيرة للمشهد النفيس من أحد معاصرى مراد بك .

أما زوجة مراد بك (نفيسة) فقد توفيت بعد ذلك بثمان وخمسين سنة .

وختاما أقول : إن إجماع المعاصرين على تحديد مكان وفاتها رضى الله عنها واتفاق كبار المؤرخين القدماء على ذلك ، واعتقاد الأمة منذ القدم فيها وزيارتها فى مكانها الحالى ، وتاريخ عمارة مشهدها ومسجدها ، كل ذلك يجعل إنكار وجودها من قبيل إنكار الحقائق البديهية ، اللهم إلا إذا كانت زوجة مراد بك عاشت فى القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث ! وهذا ما لم يدعه أحد ! .

وليطمئن الأستاذ ولا يرم الشعب المصرى بالغباء : فمصر مملوءة بأضرحة كبار الحكام ، أمثال أحمد بن طولون ، والمعز لدين الله ، والظاهر بيبرس ، ومحمد على باشا الكبير ، ومع ذلك لم يكونوا مزاراً للمستشفعين ، وإن كان يحمل لهم أطيب الذكريات ويثنى عليهم أجمل الثناء ؟

---

(١) دار الآثار العربية رقم ٤٤٦ . وهو محراب إطاره من خشب نبق محفور بزخرفة دقيقة الصنع كانت شائعة فى القرنين الخامس والسادس الهجرى . راجع كتاب الدكتور حسن ابراهيم (الفاطميون فى مصر) ص ٣٦٤ .

(٢) الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ٦٢ ، والخطط والآثار للمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ جـ ٢ ص ٣٠٦ .

(٣) الجبرتى ـ عجائب الآثار جـ ٢ ص ٦ .

حول مؤلفات الجاحظ

« الدلائل والاعتبار ، العبر والاعتبار ، التفكر والاعتبار »

« أسماء ثلاثة لمسمى واحد »

حضرة الأستاذ الشيخ سليمان سليمان خميس

بتخصص التوحيد والفلسفة

لا يزال التراث الاسلامى بحاجة إلى جهود كبيرة لتكشف عن مخبآته . ولقد لمست هذا بنفسى حينما كنت أعد العدة لتأليف كتابى « حقيقة الجاحظ المفكر » . فبينما يذكر لنا ابن العميد أن كتب الجاحظ « تعلم العقل أولاً والأدب ثانيا » إذا بنا فى هذا العصر نجد الجاحظ لا يكاد يعرف إلا بأدبه ، حتى لقد وصلت الحال إلى أنك إذا ذهبت إلى أى دار من دور الكتب وجدت كتب الجاحظ قد فهرس لها فى الفهارس الأدبية[1] ، ونرجو أن نكون قد وفقنا إلى إظهار « حقيقة الجاحظ المفكر » وكشفنا عن ناحية تكاد تكون مجهولة عن الجاحظ فى هذه الأيام . ولعل ما ننشره اليوم قد يكون من هذا القبيل المجهول .

ذكر لنا سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان أنه رأى بنفسه ثلثمائة وخمسين كتابا من مؤلفات الجاحظ . وذكر ياقوت فى كتابه « معجم الأدباء » بعض مؤلفات الجاحظ وذكر لنا فيما ذكر من مؤلفاته كتابا يسمى « التفكر والاعتبار » . وإذا كنا لم نعثر على ذلك الكتاب ، فقد وجدنا كتابين آخرين ينسبان إلى الجاحظ أحدهما مطبوع والآخر مخطوط ؛ أما الكتاب المطبوع فيسمى « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » : وأما المخطوط فيسمى العبر والاعتبار ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية ، ويستطيع القارىء أن يرجع إليه[2] .

---

(١) إذا استثنينا كتاب الدلائل والاعتبار ، أو العبر والاعتبار ، وجدنا كل أثر للجاحظ قد وضع فى الفهارس الادبية . (٢) فى فهارس علم الكلام تحت رقم ١٩٧٨ .

وقد استلفت نظرى تقارب اسمى هذين الكتابين ، فدفعنى ذلك إلى الموازنة بينهما ، وقد ظهر لى من هذه الموازنة أن العبر والاعتبار ، هو نفس الدلائل والاعتبار ، وكل ما هنالك من فارق بينهما هو أن المقدمة المذكورة فى العبر والاعتبار قد حذفت من الدلائل والاعتبار ، وغُير اسم العبر والاعتبار بالدلائل والاعتبار .

ولست أدرى أصنع الناشر للدلائل والاعتبار هذا الصنيع ، أم قد سبقه بهذا أحد فتابعه . وإذا كان الدلائل والاعتبار هو نفس العبر والاعتبار ولا يمتاز عنه إلا بالمقدمة وتغيير الاسم ، فإن أكبر الظن أن التفكر والاعتبار ما هو إلا اسم ثالث لهذا المسمى الذى أطلق عليه مرة اسم العبر والاعتبار وأخرى اسم الدلائل والاعتبار .

سلك الجاحظ فى هذا الكتاب سبيل النظر فى الكون مستدلا بما فيه من عجائب ونظام على وجود إله مدبر حكيم ، واستعرض الكثير من الكائنات ليصل بقارئه الى هذا الهدف ؛ وقد تأثر بهذا الكتاب وانتهج منهجه بعض المفكرين الاسلاميين ؛ وها نحن نجد الغزالى فى كتابه حكمة الله فى المخلوقات يسير هذه السيرة . وكذلك نجد ابن قيم الجوزية فى كتابه مفتاح دار السعادة ، ومنشور ألوية العلم ، ينتهج نهج الجاحظ فيستعرض الكثير من الكائنات مستدلا بها على أن لها صانعاً مدبرا .

والقارىء لكتاب ابن القيم المذكور يرى تأثره بكتاب الجاحظ واضحا جليا ، حتى يكاد يلمس تأثره به فى عباراته فضلا عن منهجه [1] .

ولما كانت مقدمة العبر والاعتبار التى حذفت من النسخة المطبوعة « الدلائل والاعتبار » تشير الى أن الجاحظ قد سبقه من سلك هذا المنهج ، وأنه قد استفاد من هؤلاء ، رأينا أن نثبت هنا تلك المقدمة حتى يتمكن من يقتنى هذه النسخة المطبوعة من الاحتفاظ بها ، فضلا عما فى نشرها من فائدة لعامة القراء وها هى :

---

(١) راجع فى هذا ص ١١٩ ، ١٢٠ من « حقيقة الجاحظ المفكر » لكاتب هذا المقال تجد النصوص المنقولة عن الجاحظ وابن القيم تكاد تتفق فى العبارة .

«بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى سمك السماء بقدرته ، وجعل الأرض مهادا بحكمته ، ونظم ما بينهما ببراهين أدلته ؛ خالق الأمور المتعادمة ، والآلات المتباينة ، والجواهر والأعراض المختلفات والمتفقات ، من نور وظلمة ، وذى سكون وذى حركة ، وأنس ووحشة ، وجفاء ورقة ، وضعف وقوة ، ونوم ويقظة ، وضحك وغضب ورضى ؛ الذى أخفى النفوس فى الأبدان وألطفها فلا تُرى ، ثم دبرها فما تحس وتشاهد ، وأيدها بالفطن وقواها بالعلم والمعرفة ، وأعانها بالأسماع والأبصار والذوق واللمس والشم ، وأيدها بالأيدى والأرجل الحوامل العوامل ، ومكنها من الحجة والمعرفة بالأدلة ، وجعل ما وهب لها من ذلك حجة لها إن شكرت ، وحجة عليها إن كفرت ، وشاهدا بتقصيرها إن قصرت . والحمد لله الأحد الواحد الماجد ، الذى لاتشتمل عليه المشاعر ، ولا تحجبه السواتر ، ولاتدركه الخواطر ؛ الأول لا بترتيب عدد ، الآخر لا بمعنى غاية تنفد ، الشاهد من غير مماسة ، البائن لا عن مسافة ، الظاهر لا للأبصار ، الباطن من غير حلول ، الذى دل على نفسه بآيات قدرته الموجودة فى بريته ، واستشهد على لطفه بفعله ، وجعل الحجاب بينه وبين خلقه ضعفهم عن إدراك قوته ، فذاته مجهولة الكنه ، وآياته معلومة بين خلقه ، معروفة بما وهب لهم من بصر هدايته ، ليس سواه إله ، ولا غيره رب معبود ؛ الذى حجب الأبصار عن رؤيته ، ويسر للعقول سبيل معرفته ، وأخرس الألسن عن تحديد كنه صفته ، . والحمد لله الذى خلق فأحسن الخلقة ، وفطر فأتقن الفطرة ، وفتق الأفهام للمعرفة ، وذلل الجوارح للطاعة ، وهدى الى طريق النجاة والسلامة ، وزجر عن سبيل الضلالة والجهالة ، ثم مد لخلقه حبل الإمهال ، . ووعدهم المغفرة والإقالة حتى ارعوى مرعو ، واهتدى مهتد ، بعد التحير والتهور تتميما للنعمة ، وزيادة فى الإعذار ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما . فنعوذ بالله من غلبة الشقوة ، ونسأل الله العظيم الزيادة من البصيرة ، والمنفعة بالعلم ، وأن لايجعل شيئا منه وبالاً فى الآخرة ، إنه على كل شىء قدير .

« أما بعد فإنه ليس بأهل البر والتقوى ، ولا بذى الغباوة والردى ، غنى عن المواعظ ، والدلالة على أمكنة الحق ، والتواصى والتناهى عن الشر ، لما فى ذلك من التبصرة والتذكرة . والتأديب والتهذيب ، والبركة والمنفعة ؛ ولو كان [خرم] عدو الله إبليس الضامن بإحناك الذرية إلا قليلا ، وبين [خرم] رب

العباد أعلاق سوى الذكر لله ، لوجب طلب مفاتيحها علينا بتحمل المشاق وركوب الأخطار والتغلغل الى خفى أماكنها ، لنأمن كيد عدونا الذى يجرى مجرى الدم ، ويرانا من حيث لا نراه ، وله تسليط على سويداء القلوب ، وحرص على استزلالنا لنعطب ، فأوجب الأعداء عباد الله بأن يحذر من ليس يجرى من كيده حارس سوى التعوذ بذى الجلال والإكرام ، والفزع الى تلاوة كتبه وترديد أسمائه الحسنى ، والتعلق بذكره .

« فليكن بالك أيها الإنسان المخلوق من ضعف وطين وماء مهين ، معتنيا بذكر الله ، منوطا بالفزع إليه ، ومسألة النجاة من كيد عدوك وعدوه ، والسلامة من خيله ورجله ، ومكر جنوده : فإن لهم أفواها وألسنة تلتقم القلوب والأسماع ، وصورا مختلفة لا ترى بالأبصار ، ومداخل لطيفة تصل الى النفوس بمراده من الإضلال والاستزلال .

« واعجب وعجب أيها الانسان ممن جهل معرفة الواحد الخالق الرحيم الرحمن ، وقد أراه الآيات البينات فى الآفاق وفى نفسه ، من النماء والنقص فى أحواله وأهله وجسمه ، وأوجد له الأمور التى بها تتم منافعه ، والمآرب التى إليها يتناهى مصالحه ، وكيف تهيأ له قبل [خرم] مفروغا منها قبل خروجه الى الدنيا متممة محكمة وهو فى ظلمة الرحم ، مصنوعة منظومة على أتم صنعة قبل تكوينه ، وأنه لم يمهدها لنفسه ولا ادعى أبوه تمهيدها ولا أمه ولا أحد من أبناء جنسه ، ثم ليس منها على كثرتها شىء إلا وهو مركب تركيبا لم يكن المصلحة لتناهى الى دونه ولا يتجاوز ما فوقه ، ولا ترغب عن شىء منه ، وإن الطبائع جميعها لتشهد أنها لم تصنع ذلك وتعترف بالعجز ، ولو ادعت ذلك لانقطعت أسباب الحقيقة عن دعواها وشهد بالإمحال عليها عجزها . ونحن ذاكرون أشياء من شواهد آثار الصانع فى صنعته ، ومنبهون على أسرار قد أودعها ، تخبر عن جلال عظمته وكمال قدرته ، وواصفون أعلاما وآيات وبراهين واضحة تشهد بها التجارب ، وتهيب بذكرها الغرائز ، وتعرفها الطبائع ، ولا تنكرها التراكيب ، ولا تدفعها العقول ، بمقدار وسع الطاقة ومبلغ الجهد ، وما وهب الله لنا من العلم ؛ وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا ، وهو العلى العظيم ، لتزول

الشكوك عن قلوب المرتابين ، ويتجدد نور اليقين فى صدور المؤمنين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

« وقد ألف مثل كتابنا هذا جماعة من العلماء الحكماء المتقدمين فما أوضحوا معانيه ، ولا بينوا المشكل فيه ؛ فنهم جبريل بن نوح الأنبارى ، لأنه صدر كتابه بغير خطبة ولا مقدمة ، ورتبه بترتيب الفلاسفة ، وصدره بكلام منفلق ، ونظم غير متسق . فكان كما لم يؤلف .

« وقبله ألف فى معناه « بوردبوس » أسقف طرسوس ، كتابا وضعه فى زمان « فلبالوس » عظيم الروم الذى كان ينسب الى القول بالدهر ، والعصبية لدين الكفر ؛ فكان هذا الملك من أهل التلبيس والتدليس ، وسمى « بوردبوس » كتابه : كتاب التدبير ، ونقله من أخذه عنه من السريانية الى العربية ، فلم ينفع لفساد النقل ، حيث ينبغى أن يقع من الإيضاح والشرح ، وأفسده تداول الألسنة وسوء العبارة .

« ومنها كتاب نظمه « باورلطوس » أسقف « قورس » كتبه باليونانية ونقله إلى السريانية ثم إلى العربية ، فجرى مجرى الأول المفسود بتداول النقل والعبارات . ومنها كتاب [خرم[1]] أيام بنى أمية نظمه « نسو عجيب » مطران « فارس » وكتبه بالفارسية فأكسبه استغلاقا .

« وقد جمعنا فى كتابنا هذا محاسن ما وجدناه فى هذا الكتب ، وزدنا مقدار الطاقة ، والتوفيق من الله جل ذكره ، وشرحنا ما نقلنا من غيرنا ، وبينا القول فيما زدنا ورتبناه ترتيبا يونق السمع ، ويسر القلب ، وينشط السامع ، ويوجب الحجة على المخالف ، وما توفيقنا إلا بالله » .

إلى هنا تنتهى زيادة العبر والاعتبار ، وما بعد هذا من فقرات نجدها فى مفتتح الدلائل والاعتبار : ويسير الكتابان بأسلوب واحد لا يكاد يختلف - إلا ما ندر - إلى نهايتهما . وكان ينبغى أن يوجد بدار الكتب المصرية بعض الباحثين الذين يكشفون عن أمثال هذا وينشرونه على الناس . ونرجو أن تتاح لنا الفرصة قريبا ليطلع القراء على بعض النواحى الطريفة فى الجاحظ ؟

---

(١) ويبدو لى أن هذه الكلمة هى « ألف » ويوجد بعض حروف باقية ترجح هذا .

الاسلام والمسلمون
فى شرق أفريقيا

لحضرة الأستاذ الدكتور محمود حب الله

— ٣ —

حالة المسلمين الاقتصادية

قد يتبادر الى الذهن من تحدثى عن مركز المسلمين الاجتماعى والاقتصادى أنهم يكوّنون هناك وحدة اجتماعية أو اقتصادية ، وأن لهم شخصية متميزة تعامل على أنها وحدة من تلك النواحى : ولكنه لا وجود فى الواقع لمثل هذه الوحدة . وكل ما هنالك بين المسلمين من روابط هو على الأكثر ذلك الشعور الروحى الذى يوجد بين المسلم وأخيه المسلم فحسب .

لذلك كان من الدقة التحدث عن طوائفهم لا عن جماعتهم ؛ فذلك أقرب الى الصواب ؛ إذ أن ارتباط كل فرد منهم بطائفته وفرقته لا يزال أقوى وأكبر أثرا فى حياته الاجتماعية والاقتصادية من ارتباطه بجماعة المسلمين . ويمكن أن ترتب طوائفهم من الناحية الاقتصادية ترتيبا تنازليا هكذا :

الشيعة ، فالأباضية ، فأهل السنة .

فالشيعة أغنى الطوائف هناك بلا مراء : ولكن يظهر أنهم ليسوا فى مستوى واحد من الثراء . فالاسماعيليون ـ أتباع أغا خان ـ يأتون أولا . ولقد ساعدهم جدهم واجتهادهم من ناحية ، ونظامهم التعاونى الدقيق وارتباط بعضهم ببعض برباط متين من ناحية أخرى ، على أن ينهضوا نهضة عظمى فى جميع نواحى الحياة .

والبهريون والاثنا عشريون من الشيعة ذوو مركز اقتصادى طيب أيضا . وأما الأباضيون فهم على ما يبدو ، أقل ثراء من الأولين . وأما أهل السنة وهم

جمهور المسلمين ، فيأتون أخيرا ، وهم أكثرهم فقرا ، على الرغم من أنه يوجد من بينهم أفراد قلائل يملكون ثروات طائلة .

وإذا علمنا أن جمهور العرب والوطنيين من أهل السنة ، علمنا أين يحل الفقر . وإذا حل الفقر فى مكان اصطحب معه صديقيه المرض والجهل . وهذا هو شأن كثير من العرب والوطنيين .

ولقد أخبرت أن العرب كانوا يوما ما أرباب الثراء والنعمة ، ولكنهم أخلدوا الى الترف وغرتهم النعمة ، وكأنهم آمنوا بخلودها فيهم ، فلم يفكروا فى تنميتها أو الاحتفاظ بها ، فلم يمض إلا قليل من الزمن حتى كانت مرهونة فى أيدى إخوانهم المسلمين من الهنود ، وهم أكثر منهم نشاطا ؛ ولم تمض فترة أخرى حتى انتقلت اليهم لعجز العرب عن الوفاء . ولقد أوجدت تلك الظاهرة الاقتصادية فيهم شعورا من العداء نحو إخوانهم الهنود ، ولكنه قد زال الآن أو كاد يزول لأنهم أدركوا أنهم هم المسئولون حقا ، وأن ثروتهم لو لم تنتقل الى هؤلاء لانتقلت الى غيرهم من غير المسلمين ، وكانت العاقبة أدهى وأمر .

ولكن على الرغم من أنه لا يوجد بين المسلمين هناك ما يمكن أن يعتبر وحدة اقتصادية ، فلا مراء فى أنه يوجد بينهم كثير من المساعدات المالية المشكورة التى يقدمها أرباب الثراء منهم للمعسرين على اختلاف فرقهم وطوائفهم . وتتمثل تلك المساعدات فى نواح شتى . والمساجد ناحية منها . فتجد أغنياء الشيعة ، مثلا ، يساهمون بنصيب كبير فى بناء مساجد أهل السنة أو فى إصلاحها ، وقد رأيت عدة أمثلة من ذلك . وليست الجمعيات الخيرية التى تألفت هناك إلا مظهرا آخر من مظاهر العون المالى الذى يقدمه الموسرون للمعسرين ، وعلى الرغم من أن المساهمة فى هذه الجمعيات عامة ولا تخص فريقا دون فريق ، فان المبالغ التى دفعت فعلا والتى يرجى أن تدفع من العرب ومن الوطنيين مبالغ ضئيلة بجانب ما دفعه أو سيدفعه الآخرون . وأما ثمرة هذه الجمعيات فستكون أولا وبالذات للعرب وللوطنيين ، لأنهم هم وحدهم الذين لا يجدون مدارس يربون فيها أبناءهم ، وليس لديهم من المقدرة المالية ما يمكنهم من تربية أبنائهم خارج بلادهم .

٣ ـ الحالة الثقافية :

إن نظرة واحدة الى هذه البلاد تكفى لمعرفة مقدار تأخرها من الناحية الثقافية . وعلى الرغم من أن هنا مجالا فسيحا للتحدث فسأكتفى بشرح موجز لحالة المدارس واللغات السائدة هناك .

(ا) المدارس : هنالك نوعان من المدارس ومعاهد التعليم : مدارس حكومية ، وأخرى أهلية . فالحكومية قليلة العدد ، ولا يمكن أن تفى بحال من الأحوال بحاجة السكان ، وهى مع ذلك طائفية . ويظهر أن تقسيم الناس إلى طوائف شتى يعجب السلطة هناك وتوحى به ؛ إذ أنه ظاهر فى كل مكان وفى كل مرافق الحياة حتى فى التشريع نفسه .

فإذا قطعنا النظر عن المدارس التى يتعلم فيها أبناء الأوربيين ، وجدنا مدارس حكومية للهنود فى كثير من البلاد ، وهى مدارس مدنية وتقبل المسلمين وغير المسلمين من أبناء الهنود ، وتعلم من اللغات ، بجانب اللغة الانكليزية ، اللغات الهندية من أوردوية وهندوستانية ، ولكنها لا تعلم اللغة العربية . وفى بعضها أقسام ثانوية .

وأما العرب والوطنيون فليس لهم مدارس حكومية على الإطلاق . اللهم إلا شيئا يشبه الكتاب بمباسا ، ويتكون من عدة غرف بعيد بعضها عن بعض . وهى مع ذلك لم تبدأ إلا قريبا بعد جهاد عنيف قام به بعض المسلمين هناك ، ولا تعلم إلا مقداراً ضئيلا من اللغة العربية .

وليس هناك معاهد حكومية عليا إلا كلية مكريرى [1] فى يوغندة ، وهى

---

(١) عميدها الحالى الدكتور لا مونت الذى كان من قبل أستاذا للفلسفة بجامعة فؤاد الأول . ولقد كان الدكتور كريما ومجاملا ، وأثنى على مصر ثناء مستطابا حين كان يعلق على إحدى محاضراتى . ولقد دعانى بعد ذلك ودعا معى آخرين إلى العشاء فى بيته ، ودار الحديث حول موضوعات شتى تتعلق بالمسلمين ومنها =

تعنى أكثر مما تعنى بالثقافات الإنكليزية وبالأدب الانكليزى ، وتقبل طلابها من جميع الأجناس والأديان من أهل أفريقيا الشرقية ، ولكنها تقبل السودانيين أيضاً . وقد علمت أن بها الآن عشرة طلاب من مسلمى الزنجبار .

وأما المدارس الأهلية فكثيرة ومنتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، ومنها مدارس المبشرين : وسأتحدث عنها عند التحدث عن المبشرين وجهودهم . ومنها مدارس أخرى ترتبط بالطوائف والفرق وبالجماعات المتعددة .

فهناك مدارس الاسماعيليين . وهذه تكاد تكون موجودة فى كل بلاد إفريقيا الشرقية والشطر الأكبر من قراها : إذ أنهم ينشئون مدارس ، أينما حلوا ، تتناسب مع حاجتهم . فأحيانا تكون ابتدائية ، وأحيانا تكون ثانوية أيضا . وقد زرت بعض هذه المدارس فوجدتها تسير بدقة ونظام يفوقان كثيرا من المدارس الحكومية . وهى تنفق بسعة على المدرسين ، وتقبل الطلاب بلا أجور ، وهى مدنية ، ولا تقبل غير أبناء طائفتهم . ولبعض الطوائف الأخرى مدارس خاصة يعلمون فيها أبناءهم شيئا من الدين بعد عودتهم من مدارس الحكومة ، وهذه توجد غالبا فى المساجد أو فى رحابها .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وأما العرب والمسلمون من الوطنيين ، وهم يزيدون على ٧٠ ٪ من مجموع المسلمين ، فليس لهم مدارس منظمة أو ذات مورد ثابت . وكل ما هنالك هو آلاف من الكتاتيب المنتشرة فى طول البلاد وعرضها ، والتى لا يجمع بينها جامع ولا تخضع لنظام واحد أو منهج واحد . فعريف الكتاب ـ وأحيانا لا يكون له من المؤهلات أكثر من أنه يعرف شيئا من القراءة والكتابة ـ هو السلطة العليا

= موضوع كان يحز فى نفوس المسلمين : ذلك أن المسلمين جمعوا من عشر سنوات مضت عشرة آلاف من الجنيهات ليبنى بها مسجد داخل أسوار الكلية ، كما أن هناك كنائس للمسيحيين : ولكن المسجد لم يبن حتى اليوم . فوعد الدكتور لامونت بالبدء فى البناء هذا العام ، وفهمت أنه غير ملوم عن هذا التأخير الطويل لأنه لم يعين فى الكلية إلا قريبا .

التى تضع المناهج وتطبقها . وهذه الكتاتيب فى جملتها لا تعلم إلا مقدارا ضئيلا من القرآن يحفظه الناشىء بغير فهم غالبا ، وشيئا من العبادات والعقائد ، ولكن بأسلوب بدائى . ولقد زرت كتّابا فى قرية من قرى نيروبى فوجدت المعلم يعلم المبتدئين الذين لا يعرفون شيئا من اللغة العربية قواعد النحو والصرف . كأنه يرى أنهم يجب أن يعرفوا قواعد اللغة أولا ثم اللغة بعد ذلك . قد يكون هذا المعلم محقاً فى منطقه ولكنها طريقة عسرة ومملة .

ولكن هناك من الكتاتيب ما هو أرقى من ذلك بكثير : فهناك مثلا مدرسة الرياضة العربية بممباسا ، وأستاذها الشيخ سالمين بن عوض العامرى . وهى تعلم الألعاب الرياضية بجانب اللغة العربية والثقافات الإسلامية ، ويحسن أبناؤها النطق باللغة العربية ، وهى نهضة طيبة . غير أن المدرسة فى حاجة ماسة الى المساعدة المادية . وهناك فى يوغنده وتنجانيقا كثير من المدارس التى يشرف على إدارتها الشريف عبد القادر الجفرى ، وقد زرت بعضها فسرنى منهجها وما فيها من حيوية . وسألت بعض الطلاب فى مسائل لغوية ودينية فأجابوا إجابات موفقة ، واستمعت الى خطب كثير منهم — وهم من أبناء الوطنيين — فوجدت أن لهجتهم لهجة عربية صحيحة .

ولكن تلك المدارس كلها قائمة من ناحية مالية على أكتاف الوطنيين وقليل من العرب ، وهؤلاء جميعاً فقراء ، فلا يفى ما يتبرعون به بحاجة المدارس . وليس لديهم كتب مدرسية ، ولا يجدون العدد الكافى من المدرسين . ولا يجد المدرسون موردا يعيشون منه مما يضطر الكثير منهم الى العمل بجانب التدريس . وأخيرا لا تفى المدارس الموجودة بحاجة السكان المتزايدة .

وإنى أعتقد أنه لو نظمت هذه المدارس والكتاتيب وزيد عددها ورصد لها من المال ما يكفيها لكانت فتحا مبينا . لأنها تجذب قلوب الوطنيين جميعا . « وشبه الشىء منجذب اليه » . ولقد تسلمت هناك عددا وفيرا من الالتماسات ، ولا تزال الخطابات ترد الى تلتمس كلها من الأزهر ومن مصر أن يمد يد العون لهذه المدارس حتى تتمكن من تأدية مهمتها .

بسم الله الرحمن الرحيم

هل يؤدى العلم الى الالحاد

العلماء وأنصاف العلماء

لم يؤد العلمَ صاحبَه إلى الإلحاد فى أى عهد من عهوده ، فإن العالِم المنقّب عن الحقائق يجد نفسه من الوجود فى عالم لا حدّ له ، حافل بالموجودات المختلفة ، والقوى الزاخرة ، والحركات الدائمة ، والتحولات المستمرة ، فلا يكاد يسبر غورا حتى تلوح له من ورائه أغوار ، ولا يقف على علة لظاهرة ، حتى تترامى له من خلفها علل ، ولا ينتهى من تحليلاته الى سبب ، حتى تبدو له من بعده أسباب : فهو فى خِضَم غَطمطم من الكائنات والقوى الظاهرة والخفية ، بحيث يكاد يفقد رشده حيرة ودهشا ، يسود مجموعها نظام محكم لا تشوبه شائبة من اضطراب . وفى أثناء ذلك يرى العالم الذى نصب نفسه للاهتداء الى أسرار الكون ، أنه يصادف من آثار الحكمة العالية ، وعلامات الإرادة الراشدة ، مالا يدرك مداه بعقله المحدود ، ويرى أن كل ما حصّله من علم بالموجودات ، وما كسبه من فقه بالأسباب ، لا يتعدى مدى العلاقات الظاهرة بين تلك الموجودات ، أما كنهها ، ومصدر انفعالاتها ، وترابط القوى العاملة فيها ، فتعلو عن متناول عقله ، بحيث يدرك لأول وهلة من تفكير ، أنها مما لم يخلق هذا العقل لإدراكه .

فهذا الباحث عن أسرار الخليقة ، يضطر أن يخر ساجدا للقدرة العالية التى أوجدت هذا الكون الباهر ، معترفا بأنها فوق متناول الادراك ، وأن جهد الفيلسوف أن يخبت لها ، وأن يستمد منها نورا يهتدى به فى ظلمات وجوده المادى .

ولكن الى جانب هذا الصنف من المنقبين عن أسرار الوجود ، أصنافا أخرى ذوى عقول محدودة ، وهمم قاصرة ، وقابليات ضيقة ، تكتفى من التعليلات بما يؤثر على مخيلتها ، ومن التحليلات بما يقف عند حد إدراكها ، فيخيل اليها بعد ردح من الزمن أنها وقفت على أسرار الوجود ، وأن ليس وراء ما وصلت اليه غاية

ترتجى ؛ فترى أنها وقفت من كل معلول على علته ، ومن كل كائن على غايته ، فما الذى يحول بينها وبين أن تزعم أنها بلغت من العلم نهايته التى ليس وراءها مرمى ، وماذا عليها بعد ذلك أن تعلن أن العالم قائم بنفسه ، وأنه ليس بحاجة إلى قيوم فوق مادته ؟ فهذا وأمثاله أطلق عليهم الفلكى الكبير (كاميل فلامريون) فى كتابه (الله فى الطبيعة) اسم أنصاف العلماء ، وسجل عليهم أنهم قصار النظر ، محدودو التعقل ، ضعاف التصور ، يكتفون بالكلمات الفارغة ، والعبارات المجوفة . هؤلاء هم الملحدون باسم العلم ، وقد ظلموا العلم ، وقصروه على فهمهم القاصر ، وإدراكهم الهزيل .

نشر الدكتور دنيرت dennert الألمانى بحثا حلل فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلماء الذين أناروا العقول فى الأربعة القرون الأخيرة ، وتوخى أن يدقق فى تعرف عقائدهم : فتبين له من دراسة آراء ٢٩٠ منهم أن :

٢٨ منهم لم يصلوا إلى عقيدة ما .

و ٢٤٢ أعلنوا على رءوس الأشهاد إيمانهم بالله .

و ٢٠ فقط تبين أنهم غير مبالين بالوجهة الدينية أو ملاحدة .

فإذا اعتبرنا غير المبالين كلهم من الملاحدة ، وجدنا أن ٩٢ فى المائة من كبار العلماء يعتقدون بوجود الله تعالى . فهذه النسبة الكبيرة تدل دلالة صريحة على أن التناقض بين الايمان والعلم الذى يزعم الماديون أنه وصف مميز للعلماء ، ليس له أصل ، وتشير إلى أن الايمان والعلم يتكاملان ولا يتنافيان .

قال الدكتور (ليون ووتى) الذى أخذنا عنه هذا الاحصاء :

« إن العلامة الكبير (باستور) وهو أكبر عقل ظهر فى القرن الماضى كتب يقول :

« الايمان لا يمنع أى ارتقاء كان ، لأن كل ترق يبين ويسجل الاتساق البادى فى مخلوقات الله . وإذا كنتُ علمتُ أكثر مما أعلم اليوم ، لكان إيمانى بالله أشد وأعمق مما هو عليه الآن . »

وعقب على هذا بقوله :

« إن العلم الصحيح لا يمكن أن يكون ماديا ، ولكنه على خلاف ذلك يؤدى إلى زيادة العلم بالله ، لأنه يدل بواسطة تحليل الكون على مهارة وتبصر ، وكمال عقل الحكمة التى خلقت النواميس المدبرة للوجود ، كمالا لا حد له .

وقد ثبت أن الايمان إنما نشأ لدى أصحاب القرائح العالية من ممارستهم للعلم .

إن باستور العظيم ، حتى فى عهد ازدهار المذهب المادى فى أوربا ، أوتى من الشجاعة ما جعله يؤكد ما سبق للطبيعى الإنجليزى المشهور (فاراديه) تأكيده قبله . فصرح أمام جميع أعضاء الاقاذيميا الفرنسية فى حفلة انتخابه لعضويتها بعقيدته قائلا :

« إن الاعتقاد فى وجود الله ووجوب احترامه قد توارد الى عقلى من طرق ثابتة كثبوت الطريق التى تقودنا إلى حقائق النظام المادى » .

أما الدكتور (وتز)Wutz الكيمائى وعضو اقاذيميا العلوم وأستاذ وعميد كلية الطب الباريزية فقد كتب يقول :

« إذا أحسست فى حين من الأحيان أن عقيدتى بالله قد ، تزعزت وجهت وجهى إلى أقاذيميا العلوم لتثبيتها .

وهذا الفيلسوف (ديكارت) المشهور عندما كان بسبيل بيان العلاقات بين الدين والعلم ، عرفهما بقوله :

« إن حقائق ما فوق الطبيعة هى الجذور الحقيقية لشجرة العلم ، وهى بدونها تجف وتذبل ، وتتصوح أوراقها وتسقط » .

وإليك ما قاله الطبيعى (ريومور) مؤكداً :

« إن التاريخ الطبيعى هو تاريخ أعمال الخالق ، ولا يوجد دليل فى متناول عقل جميع الناس على صحة ذلك غير ما يسمح به هذا العلم » .

وقال الفلكى الكبير (فاى) Faye العضو بأقاذيميا العلوم فى مؤلفه (أصل العوالم):

« من الخطأ القول بأن العلم يفضى بصاحبه الى نكران وجود الله » .

وقال الجيولوجى الذائع الصيت (ادموند هربرت) المدرس بجامعة السوربون:

« العلم لايمكن أن يؤدى ألى الكفر ، ولا الى المادية ، ولا يفضى الى التشكيك .

وهـذا العلامة (ميلن ادواردس) العضو بأقاذيميا العلوم ، ومدرس علم الحيوانات بمتحف التاريخ الطبيعى ، قال فى محاضرة له بجامعة السوربون فى عرض على نظريات الفلسفة المادية :

« هذه الفروض الباطلة ، وأولى بك أن تقول هذه الضلالات العقلية التى يسمونها أحيانا باسم العلم الحسى ، يدحضها العلم الحق نفسه : وعلماء التاريخ الطبيعى لايستطيعون تصديقها اليوم ، كما كانوا لا يصدقونها على عهد ريومور ، ودولينيه ، ودوكوفييه ، وعدد كبير آخر من أهل الألمعية ، ولا يستطيع هؤلاء الأعلام أن يفهموا الظواهر الطبيعية ، إلا بعزو حدوثها الى خالق الكون نفسه » .

هذه آراء بعض اقطاب العلم الطبيعى ، ولدينا منها الشيء الكثير ، وجميعهم يقررون ، كما ترى ، أن سبب إيمانهم بالخالق جل شأنه هو العلم الطبيعى نفسه ، فإذا كان أنصاف العلماء وطلاب العلوم يتأدون منه إلى عكس هـذه النهاية ، فليس العاب فى ذلك على العلم ، ولكن على انخداعهم بنظرياته ، واعتبارها أمورا مقررة ثابتة ثبوت المحسوسات ، وهذا خطأ جسيم لم يقل به عالم يعتد برأيه الى اليوم .

إن طالب العلوم الطبيعية ، كثيرا ما يفتتن بتعليلاتها للمشاهدات تعليلا يمكن تحقيقه بالعمل ، ولكن هذا التعليل العلمى لايتعدى العلل القريبة من تفاعلاتها ، أما العلل البعيدة التى تتعلق بوجودها ، وبتطوراتها ، وبحركاتها الباطنة ، فتخفى على أسمى العقول ، وتدع المجال واسعا أمام الفروض والظنون المتماكسة .

طالب العلم ينخدع من إمكانه تعليل بعض ظواهر الطبيعة ، ويبنى على ذلك قصورا من الأوهام : فاذا سألته عن سر عدم سقوط القمر على الأرض ، علله بأنه يجب أن يكون مجذوبا بكواكب أخرى تمسكه فى مدار لايتعداه ، ويغفل عن أن الجاذبية العامة إن عللت تجاذب الكواكب فلا تعلل حركاتها . فقد سئل نيوتن مكتشف هـذا الناموس نفسه عن دليل لا يمكن دحضه يثبت به وجود الخالق . فقال : إذا قررنا أن الكواكب لا يتساقط بعضها على بعض لأنها متجاذبة من جميع جهاتها ، فما الذى يدفعها لتسبح فى الفضاء فى أفلاك بعضها حول بعض ؟ أليس يدل هـذا دلالة قاطعة على أن يد الله هى التى تديرها ؟ ؟

محمد فريد وجدى

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة حضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن

التى ألقاها بين يدى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فى احتفال الأزهر بعيد رأس السنة الهجرية

« كنا وعدنا بنشر هذه الكلمة القيمة فى هذا العدد من »
« مجلة الأزهر ، فنفى بما وعدنا ، وها هى فى ثوبها الرائع »

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً » .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث عشرة سنة ، يدعو فيها الناس إلى دين الله الحق ، وما فيه من هدى ونور .

وقد كانت هذه السنون الطوال حرباً شعواء على الوثنية وما فيها من شرور وفساد ، وصراعا شديداً بين الحق والباطل ، بذلت فيه قريش كل جهدها ، وما تملك من قوة وحيلة ، لإبطال الدعوة إلى دين الله ، والقضاء عليها ؛ ولاقى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه أشد أنواع الإيذاء ، وأنكى أصناف العذاب ، فلم يزده ذلك إلا اعتصاما بحبل الله المتين ، وقوة وثباتاً على الحق .

ائتمرت به قريش ، وحاولوا قتله ، وأنذروا عمه أبا طالب بالحرب ، إن لم يكفه عن الدعوة إلى هذا الدين ، وشردوا أنصاره ، ولاحقوهم خارج الجزيرة ، ليكيدوا لهم عند ملك الحبشة ، حتى لا يؤووهم ، وضيقوا عليه وعلى عشيرته ،

وقاطعوهم ثلاث سنين ، لا يبيعونهم ، ولا يبتاعون منهم ، ولا يزوجونهم ، ولا يتزوجون منهم : وبذلوا له من المال والسيادة والملك عليهم : ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ذلك وغيره من الأحداث ، لم يبال بتهديداتهم ، وإنذاراتهم ، وإغرائهم له بزخرف الدنيا ، بل سار فى طريقه ، يدعو إلى الله : وقد قال لعمه أبى طالب ـ وقد أنس منه الخذلان ، خوفا من حرب بينه وبين قومه ، تأكل الأخضر واليابس ـ : « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهر ، أو أهلك فيه ، ما تركته » !

وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس فى مواسم العرب ، ويذهب إلى القبائل فى منازلها ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وأن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ، ويناديهم : « أيها الناس ! قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فاذا فعلتم كنتم ملوكا ، لكم الجنة » . كان يفعل هذا ، ومن ورائه من القرشيين من يصد الناس عن الاستجابة إلى دعوته ، والاستماع إلى ما يقول .

ولكن الله سبحانه وتعالى ، الذى أراد إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ، هيأ لهذا الدين منفذاً يسود فيه ، وتعلو فيه كلمة الله : فقد اتصل صلى الله عليه وسلم ، فى موسم الحج بنفر من أهل المدينة ، فتلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الإسلام ، فأسلموا : وقد عرفوا فيه أنه النبى الذى كان يذكره لهم اليهود ، وقالوا له : « إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك : فسنقدم عليهم ، فندعوهم لأمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك » . ثم انصرفوا ، وذكروا لقومهم أمر رسول الله ، ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكره صلى الله عليه وسلم .

وفى الموسم التالى ، وافى الموسم من المدينة اثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج ، واجتمعوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وبايعوه على الإسلام ، وألا يرتكبوا إثماً ولا فجوراً ؛ وأرسل مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ، ويفقههم فى الدين : فأسلم

بإسلامهم خلق كثير . وفيهم الأشراف والسادة : وكان القرآن هو المؤثر الأعظم الذى ينفذ الى القلوب المغلقة فيفتحها فلا من يسمعه حتى يسلم . « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديثِ كتاباً مُتشابهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ منه جُلودُ الذين يَخْشَوْن ربَّهم ثُم تَلِينُ جلودُهُمْ وقلوبُهم إلى ذكرِ الله : ذلك هدى الله يَهدى به مَن يشاء » .

أسلم سعد بن معاذ سيد بنى عبد الأشهل بعد أن سمع القرآن وتأثر به ، فذهب الى قومه فى ناديهم فقال : يابنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة . قال : فإن كلام نسائكم ورجالكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . قالوا : فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة .

وفى موسم الحج الذى كان قبل الهجرة ، اجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ممن أسلموا ، وتشاوروا معه سرًّا ، فرأى من استعدادهم أن يعقد معهم حلفاً يكون قوة للإسلام ومنعة للمسلمين ، فبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم . ولو كان فى هذا مصيبة الأموال وقتل الأشراف ولهم الجنة .

وفى هذه المبايعة يقول الله تعالى : « إنَّ اللهَ اشْتَرَى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهم الجنةَ . يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتُلُونَ ويُقتَلون . وعْداً عليه حقًّا فى التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ . ومَن أوفَى بعهده من الله ؟ فاستبشروا بِبَيْعِكُم الذى بايعتُمْ به . وذلك هو الفوزُ العظيمُ » .

أزعجت هذه البيعة قريشا بعد أن علمت بها ، وكانوا يؤملون أن يعيدوا من أسلموا إلى دينهم . بعد أن أصابوه بالأذى وضيقوا عليهم السبل : ولكنهم وجدوا الزمام قد أفلت من أيديهم . لأن الأنصار سبقوا إلى المدينة ، وأن محمدا وأصحابه وجدوا لهم طريقا إلى الخلاص . وأصبحت فجاج المدينة مفتوحة أمامهم ، وصارت لهم قوة خارج مكة قد تنمو وتنصر محمدا عليهم ، وقد تقف فى طريق تجارتهم وتمنع قوافلهم إلى الشام . وقد يداهمونهم فى دارهم ويملكون عليهم أمرهم : ولهذا أخذت قريش تفكر جديا فى هذا الأمر ، وخصوصا بعد أن عرفوا من أمر المسلمين أنهم قد هاجروا وحققوا بحلفائهم فى المدينة ، وأصبحوا فى قوة ومنعة .

وخافوا أن يلحق محمد بهم فيكيد لهم بمالا يقدرون على دفعه ، وهو فى منعة من أصحابه ، فاجتمعوا له فى دار الندوة ، وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها ، يتشاورون فيما يصنعون فى أمره . وقلبوا الأمر على الوجوه المختلفة ، وانتهوا إلى رأى أبى جهل بن هشام ، وهو أن يختاروا من كل قبيلة شابا فتىً جَلْداً نَسِيبا وَسِيطاً فيعطوه سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا قومهم جميعا .

وانتهوا الى هذا الرأى ، واختاروا الفتيان والليلة التى يقتلونه فيها : وقد علم رسول الله صلوات الله عليه ما دبروا وما بيّتوا ، فلم يفزع ، وبيّت من الأمر ما يرد به كيدهم ، والله تعالى يقول : « وإذْ يَمكُرُ بك الذين كفروا لِيُثْبِتُوك أو يَقْتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر اللهُ ، والله خيرُ الماكرين » .

ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبى بكر وأخبره بما كان ، وأن الله تعالى قد أذن له فى الهجرة ، ففرح أبو بكر رضى الله عنه ، لأنه كان يرجو أن يكون صاحبَ رسول الله فى هجرته . وسأل رسول الله أن يكون صاحبه فأجابه ، ففرح أبو بكر بذلك حتى بكى . وقالت عائشة رضى الله عنها : « فوالله ما شَعَرتُ قطُّ قبل ذلك اليوم أنّ أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ » !

أمَر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب أن ينام مكانه فى الليلة التى اتُّفق على قتله فيها ، وأن يتسجى ببرده الذى اعتاد أن ينام فيه ، حتى لا يرتاب أحد فى وجوده ؛ فكان على رضى الله عنه أول من باع نفسه فى سبيل الله ، ووقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم خرج هو وأبو بكر إلى غار بجبل ثور فدخلاه ، ورُتب الأمرُ على أن يتسمّع عبد الله بن أبى بكر أخبار قريش نهاره ، ثم يأتيهما فى المساء بما كان فى ذلك اليوم ، وأن يرعى عامر ابن فهيرة مولى أبى بكر غنمه فى النهار ، ويريحها عليهما فى المساء ، حتى إذا عاد عبد الله تبعه بالغنم فعفّى أثره ، وأن تأتيهما أسماء بنت أبى بكر بما يصلحهما من الطعام . أما فتيان قريش الذين اجتمعوا على قتله فقد باتوا ليلتهم على باب داره ينتظرونه حتى يخرج فيقتلوه ؛ وكانوا يتطلعون من فُرْجة فيرون رجلا نائماً

يرون أنهم طلبتهم . هو نائم فى برده الأخضر الذى اعتاد أن ينام فيه : إذاً لاشك أنه محمد . ولكن فى الصباح أدرك هؤلاء الفتيان أنهم باتوا يحرسون على ابن أبى طالب ، لا محمد بن عبد الله .

اهتمت قريش لهذا الأمر ، وسألوا عن أبى بكر فلم يجدوه ، فزاد اهتمامهم وخرجوا بسيوفهم ورماحهم يبحثون عن محمد وأبى بكر فى كل مكان ، وجعلوا لمن يأتى بهما قتيلين أو مأسورين دية كل واحد منهما مائة ناقة ، وأتوا بالأدلاء والقافة يبحثون ، حتى وصلوا إلى الغار ، وصاروا كما قال أبو بكر : « لو نظر أحدهم إلى قدمه لرآهما » ففزع أبو بكر وظهر عليه الحزن خوفاً على النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله لست أخاف الموت فأنا رجل واحد ، ولكنى أخشى عليك ، فإنك إن قتلت هلكت الأمة . فأجابه رسول الله بقلب يملؤه الإيمان واليقين بأن الله سينصره ويؤيده « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا » .

أما فتيان قريش فقد عادوا بالخيبة والفشل ، وصرف الله نظرهم عن رؤية النبى وصاحبه ، فلم يهتدوا إليهما .

وفى هذه الحادثة ، وهى إحدى المعجزات التى أكرم الله بها رسوله ، يقول القرآن : « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى : وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

مكثا فى الغار ثلاثة أيام حتى سكن الطلب ، ثم خرجا إلى المدينة على راحلتين كان قد أعدّهما أبو بكر ، يقودهما دليل ماهر . وهنا يسجل التاريخ معجزة أخرى للنبى صلى الله عليه وسلم أكرمه الله بها .

وقد علم سراقة بن مالك بالجهة التى يسيران فيها ، فتقلد سلاحه وركب فرسه ، وقد أغواه الجعل الذى بذلته قريش ، فسار خلفهما جادًّا حتى يلحقهما ، وقد أفزع هذا المفاجىء الجديد أبا بكر عند ما رآه يقترب منهما . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان دائم الدعاء ، ولا يفتر عن قراءة القرآن : ولكن بينما سراقة يجدّ السير إذ كبت به فرسه وألقته على الأرض ، ولكنه قام يحاول اللحاق بهما وقد

أوشك على النجاح . غير أنه لم يلبث حتى كبت به الفرس مرة أخرى وساخت قوائمها حتى الركبتين وألقته بعيدا يتدحرج فى سلاحه . وهنا تطير سراقة وأدرك أنه فاشل فى محاولته . وقال عن نفسه : إنه ألقى فى روعه أن محمدا سيظهر أمره وينتصر . فألقى إليهما بالأمان ، وانتهى به الأمر إلى أن أصبح حارسا لهما يمنع من يريد اللحاق بهما ، بعد أن خرج يريد قتلهما أو أسرهما .

الحياة فى المدينة

وصل الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، فاستقبله أهلها بأعظم مظاهر الترحيب . وكان يوماً مشهوداً . وفى المدينة يبدأ أهم دور فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وهو دور التنظيم ، ودور الهداية . ودور النصر .

كان فى المدينة طوائف مختلفة من السكان . وهم المسلمون من سكان المدينة الذين أجابوا الدعوة وآمنوا وسماهم الإسلام الأنصار : والمهاجرون الذين فروا من مكة إلى المدينة : واليهود ، والوثنيون الذين لم يسلموا من سكان المدينة الأصليين . ومع هذا التعدد كانت توجد بين أهل المدينة الأصليين إحن وأحقاد متأصلة فى النفوس وصلت إلى الحرب التى كادت تفنيهم . وقد قال النفر الذين التقوا بالنبى صلى الله عليه وسلم فى الموسم : « إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك » .

كان لابد إذن من تدبير أساسى يوحد بين هذه النزعات المختلفة فى هذا المجتمع ؛ ولهذا وجه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عنايته بحسن سياسته وتدبيره الى توحيد الكلمة ، وجمع الشمل ، والقضاء على هذه الأحقاد الممتزجة بالنفوس ، ليجعل من المدينة وحدة سياسة منظمة يشعر فيها جميع السكان بالطمأنينة والاستقرار .

عمد إلى تنظيم حقوق المسلمين وتوثيق وحدتهم ، فآخى بين المهاجرين والأنصار مؤاخاة دُونها لحمة النسب ، وقد كانت مؤاخاة فى الدين ، بها يتناصرون ويتوارثون كما يتوارث الإخوة من النسب ، وأظهر الأنصار فى هذه المؤاخاة من كرم النفس وحسن مواساة المهاجرين وإيثارهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ما كان له أعظم الأثر فى النفوس وامتزاجها . ولقد بلغ من بعضهم أن عرض على أخيه أن يقاسمه فى ماله وهو حى حتى لا يشعر بشىء من المفارقة . وقد جعل الله لهؤلاء

الفضل الأول . وسماهم المؤمنين : فى الكتاب الكريم « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله . والذين آووا ونصروا . أولئك هم المؤمنون حقاً . لهم مغفرة ورزق كريم » .

وعمد إلى الاتفاق مع اليهود . فكتب بينهم وبين المهاجرين والأنصار معاهدة مفصلة . تقررت فيها وحدة المسلمين . وأنهم أمة واحدة . تكوّن وحدة ذات شخصية سياسية ودينية . مهما اختلفت شعوبهم وقبائلهم : وتقررت فيها حرمة الأنفس وحرمة الأموال وحرمة المدينة . وقد عاهد اليهود على أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . وعلى أن ما كان بين أهل هذه المعاهدة من حدث أو اشتجار يخاف فساده . فإن مرده الى الله عز وجل . وإلى محمد رسول الله .

وبهذه المعاهدة العظيمة والمؤاخاة بين المسلمين . هدأت حالة المدينة . وسكن المسلمون الى دينهم . يقيمون فرائضه جماعات ووحدانا . لا يخافون فتنة ولا أذى . وزال ما كان بينهم من العداوة وصدق فيهم قول الله تعالى : « هُو الذى أيّدكَ بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم . لو أنفقتَ ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم . ولكنّ الله ألّف بينهم . إنه عزيزٌ حكيمٌ » .

هذا فى المدينة : أما فى خارجها . فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين الى عدم مناصرة المشركين وموالاتهم ، ورغّب من يسلم فى الهجرة الى المدينة ، ليكونوا قوة لإخوانهم فى الدين ، ولينالوا من خير الدنيا والآخرة : وإلا فلا تناصر بينهم وبين إخوانهم فى المدينة إلا إذا اعتدى عليهم فى دينهم فإنهم ينصرونه . وفى هذا يقول الله تعالى : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض : والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من وَلايتهم من شىء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصرُ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق . والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض . إلاّ تفعلوه تكن فتنةٌ فى الأرض وفسادٌ كبيرٌ » .

وبعد أن وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أسسَ الوحدة والهدوء والاستقرار للدولة الإسلامية ، أخذت أعماله فى السياسة والتشريع تتوالى ، مما كان له أكبر النتائج . وأعظم الأثر فى التاريخ .

وفى الحق إن الهجرة النبوية ، وما سبقها ، وما كان فيها من أحداث ، تعلمنا أن الحق مهما تجمعت عليه القوى ، فانه لن يغلب . وأنه لابد أن ينتصر ويسود . ولكن لابد لهذا من الصبر والعمل ، مع السياسة وحسن التدبير : والله المستعان .

مولاى صاحب الجلالة :

إن حادث الهجرة مَثَلٌ أعلى فى التضحية وبذل النفس فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وأن ترفرف على هذا الوجود راية الأمن والطمأنينة والسلام . والتاريخ يامولاى يسجل لك القدوة الحسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت تعمل على إعلاء كلمة الدين ، ورفعة شأن الإسلام والمسلمين ، مع الأناة وحسن السياسة والتدبير . والتاريخ يامولاى يسجل لك ماعملته وتعمله فى جمع شمل العروبة وتوحيد كلمتها ، كى تعود إلى سابق مجدها وعزها وسلطانها . وها هى يامولاى بقوة عزمك وحسن تدبيرك قد اجتمعت كلمتها ، وصارت قوة يحسب حسابها إذا جدّ الجد بين الدول العظمى ، وهى تناضل عن حقوقها معتزة بنفسها وقوة سلطانها . والتاريخ يسجل لك يامولاى رعايتك هذا المعهد العظيم ، مهد العلم والعلماء ، ودوام العطف والحنو على أهله ، وشدة اهتمامك بمن يفدون إليه من أقطار الأرض ليتفقهوا فى الدين وينشروه بين قومهم إذا رجعوا إليهم . وأنت فى هذا يامولاى إنما تعمل بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : « إن الناس لكم تبع ، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ، فإذا جاءوكم فاستوصوا بهم خيراً » .

وإن الأزهر يامولاى ، علماءه وطلابه ، ليضرعون إلى المولى القدير أن يحفظ جلالتكم ذخراً للإسلام والمسلمين ، وقوة للعلم والعلماء ، ومناراً تستضىء به العروبة فى جهادها ونضالها : وأن يوفق حكومة جلالتكم إلى مافيه خير الأمة وفلاحها .

وإنا لهذه الذكرى يامولاى نترحم على رجلين عظيمين كانا يعملان تحت لوائك لإعلاء شأن الدين ، ورفعة هذا المعهد العظيم ، هما المغفور لهما : الشيخ محمد مصطفى المراغى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، رحمهما الله وجعلهما فى أعلى عليين مع الصديقين والشهداء والصالحين . والسلام عليك يامولاى ورحمة الله ؟

المساجد الثلاثة

المسجد الحرام ـ المسجد النبوى ـ المسجد الأقصى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تُشَدُّ الرحال [1] إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » [2] . رواه الشيخان .

أفضل بقاع الأرض المساجد ، ما في ذلك ريب : وكفى أنها بيوت الله التي أذن أن ترفع ويُذكر فيها اسمُه . وهي — وإن شرُفت كلها بانتسابها إلى الله عز وجل — تختلف شرفا وفضلا باختلاف قدمها وسعتها ، واقترابها من السنة وابتعادها .

وقد رفع الله ثلاثة منها درجات ، فقدّمها على ما عداها ، وكرّمها ، وفضّلها تفضيلا : وتلك هي التي نوّه بأسمائها [3] رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث .

أما المسجد الحرام فهو أعظمها فضلا ، وأجلها شأنا ، وأرفعها مكانا ؛ جعله الله مثابة للناس وأمنا ، في مكة البلد الأمين ، مهبط الوحي ، ومبعث الرسالة ، ومولد خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . اختاره الله تعالى قبلة لعباده ، وجعل زيارته ركنا من أركان دينه ، وأمر أبا الأنبياء خليله إبراهيم

---

(١) الرحل للبعير كالسرج للفرس ، وشد الرحال كناية عن السفر مطلقا .

(٢) سمي بذلك لبعده عن مسجد مكة أو المدينة ، أو لأنه لم يكن وراءه مسجد ، أو لبعده عن القذر والرجس .

(٣) نوه باسمه : إذا رفع ذكره .

عليه السلام أن يبنيه ويرفع قواعده ، ويؤذّن فى الناس بالحج إليه : ليأتوه رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . وليس على وجه الأرض موضع يجب على كل قادر أن يسعى إليه ، ويطوف به ، ويقبّل بعضه إلا هذا البيت . وحسبك ما روى أن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه ، وما صح أن من حجه مخلصا لله فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . وهل تنتظر شهادة على فضله أبلغ من قول أصدق القائلين فيه « إن أول بيت وُضع للناس للّذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقامُ ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حِج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » ؟

ويلى المسجدَ الحرام فى الفضل مسجدُ النبى صلى الله عليه وسلم ، على ما ذهب اليه العلماء . قال النووى فى شرح قوله صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام »[1] : اختلف العلماء فى المراد بهذا الاستثناء على حسب اختلافهم فى مكة والمدينة : أيتهما أفضل ؟ ومذهب الشافعى وجماهير العلماء أن مكة أفضل من المدينة ، وأن مسجد مكة أفضل من مسجد المدينة . وعكسه مالك وطائفة : فعند الشافعى والجمهور : معناه إلا المسجد الحرام ، فإن الصلاة فيه أفضل من الصلاة فى مسجدى . وعند مالك وموافقيه : إلا المسجد الحرام ، فإن الصلاة فى مسجدى تفضله بدون الألف[2]. ويؤيد مذهب الجماهير ما رواه الترمذى والنسائى عن عبد الله بن عدى رضى الله عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو واقف على راحلته بمكة يقول : « والله إنكِ لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أُخرجت منكِ ما خرجت » ؛ وما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى » .

---

(١) رواه الشيخان عن أبى هريرة .

(٢) انظر النووى على مسلم ، والفتح على البخارى ، وروضة الوفا بأخبار دار المصطفى — فى الكلام على المساجد الثلاثة .